الأمير شكيب أرسلان

من واحة السنة والأدب

مقدمتان للأمير في كتابي

النقد التحليلي لكتاب في الأدب الجاهلي

وقواعد التحديث في فنون مصطلح الحديث



الأمير شكيب أرسلان / من واحة السنّة والأدب

إشراف وتحرير:

د. سوسن النجّار نصر

الدار التقدّمية

المختارة - الشوف - لبنان

هاتف: ٩٦١-٥/٣١٠٥٥٥ - ٩٦١-٥/٣١١٥٥٥ - ٩٦١-٥/٣١٠٥٥٥

E – mail: moukhtarainf@terra.net.lb

http ://www.daraltakadoumya.com

الطبعة الأولى ٢٠٠٩

الأمير شكيب أرسلان

من واحة السنّة والأدب

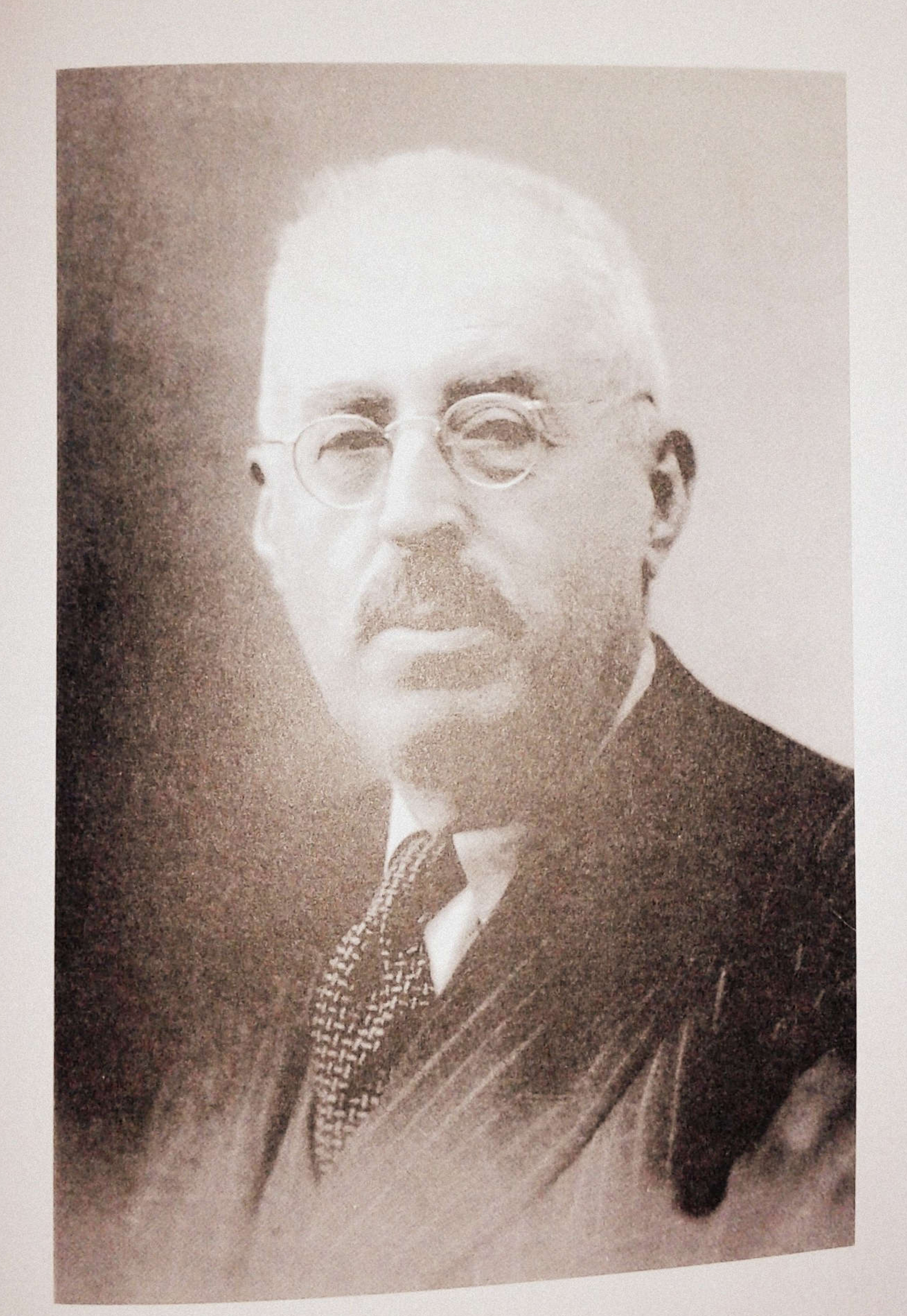
مقدّمتان للأمير في كتابي
النقد التحليلي لكتاب في الأدب الجاهلي
وقواعد التحديث في فنون مصطلح الحديث

إشراف وتحرير
د. سوسن النجّار نصر

الدار التقدّميّة

الأمير شكيب أرسلان

١٨٦٩ - ١٩٤٦



مقدّمة الناشر

إنَّ المُتابع لمسيرة الأمير شكيب أرسلان وسيرته، يدرك تنوّع المؤلّفات، وتلوّن الموضوعات التي تصدّى لها الأمير خلال حياته؛ جامعًا ما بين غذاء العقل ونوره، وغذاء المبادئ والقِيَم والمُثُل التي كان لها سيفًا مسلّطًا على كلّ يد آثمة أرادت بقومه وأبناء جلدته ودينه، سوءًا.

فمن ساحات الوغى التي رأيناه فيها السياسي، والمقاتل، والمرافع، والمدافع، والمواجه، في زمن عزّت فيه الحياة، وغلت فيه النفوس، كان الأمير شكيب أرسلان ينطلق بنفس عارمة بالإيمان، متورِّعة، مطمئنَّة، تقوده خطواته الثابتة إلى كلّ مكان تحقيقًا لهدف واحد: حفظ الإسلام والعروبة. غير أنَّ هذا الدور، على أهمّيته، لم يحجب متابعته لأمور الساعة والحياة وما فيها من جماليّات، من آداب وغيرها، فنراه ها هنا وقد أسبل على يراعه عدّة الأدب، يغرف من جمال الفقه والسنّة، ليكون قوله في ما سيضمّه هذا المؤلَّف عينًا لناقدٍ فذٍّ أرخى على كلماته ياقة الأدب الجمّ واللغة المتقنة، فبات أمير البيان سيِّد الصفحات، يختال بكلماته الجميلة، الرائعة السبك بيُسر وسهولة، ليسجِّل لنا علامات الرفعة والنزاهة والتمسّك بالقيم الدينية، والدنيوية، عظةً لنا وقدوة، وذلك بعد أن عزّزها بالأدلّة والبراهين والمنطق العلمي الذي يحاكي العقل.

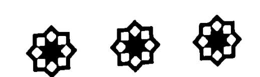
كتابان اثنان حظيا بتقديم للأمير شكيب أرسلان؛ الأول يحمل عنوان: «النقد التحليلي لكتاب في الأدب الجاهلي»، لمؤلِّفه محمَّد أحمد الغمراوي، والثاني هو «قواعد التحديث من فنون مصطلح الحديث» وهو للسيِّد جمال الدين القاسمي، علاَّمة الشام في أيامه؛ وقد استطاع الأمير في هذين التقديمَين أن يقوم بدراسة بنَّاءة تلقي الضوء على الموضوع المطروح. وتجدر الإشارة هنا إلى أنَّ الأمير قد خرج بدراسة نقدية جدّ هامّة، وذلك في الكتاب الأول، تناولت المسائل الأدبية ما بين الشرق والغرب،من

خلال التعليق على كتاب الأديب طه حسين "في الأدب الجاهلي"، مشيرًا إلى ما نُقل إلينا من الغربيين من خصال، واصفًا بعضها بالرديء، وقد أشبعها تفسيرًا وشرحًا وموازنة. أمّا في الكتاب الثاني، فقد كانت مقدِّمته تربوية أعطت لصاحب الكتاب حقّه في تبحّره في سنّة الرسول (ص)، وكيفيّة نشرها وإيصالها إلى الناشئة.

هذا، ونظرًا للأهمّية البالغة التي اكتسبها التقديمان للكتابين المذكورين، واللذين هما من محفوظات المكتبة الخاصّة لمعالي الأستاذ وليد جنبلاط، وشعورًا بالمسؤوليّة من قِبَل الدار التقدّمية التي تحرص كلّ الحرص على متابعة ونشر كلّ ما تركه الأمير شكيب أرسلان من تراث جليل، فقد استقرّ الرأي لديها على نشرهما، كليهما، في كتاب واحد، ليستطيع القارئ الكريم أن يميِّز عمل الأمير شكيب أرسلان النقدي، وكيفيّة تعاطيه مع المادّة، فيضيف إلى شخصيّته الفذّة براعة جديدة، وعلمًا ودراية ملفتين، إن نمَّا على شيء، فإنَّما على هذا المعين الفسيح الذي كان أمير البيان يغترف منه ويجود بمائه على صفحات كاغده، ليكون مرجعًا ومنارة لكلّ طالب سبيل في هذا المجال.

الدار التقدّمية

في، ٢٤ آب ٢٠٠٩



المقدّمة

الشعر الجاهلي، أمنحول أم صحيح النسبة؟*

- توطئة

في أيّام صباي، قرأت قصيدة للشيخ يوسف النبهاني امتدحَ بها السيِّد أبا الهدى الصيّادي في أيام السلطان عبد الحميد، جاء فيها هذه الأبيات:

ويمّمتُ دار الملك أحسبُ أنَّها	إلى اليوم لم تبرح إلى المجد سُلَّما
فألفيتها قد أقفرت من كرامها	ولم يبقَ فيها الفضل إلاّ توهُّما
وألفيتُ مثلي أُمَّةً عربيّةً	يرى القوم منها أُمَّةَ الزنج أكرما
وما نقموا منّا بني العُرْب خلّةً	سوى أنَّ خيرَ الخَلق لم يكُ أعجما

فاستحسنتُ هذه الأبيات، وطفقت أنشدها في مجالس بيروت معزوّة بالصراحة إلى ناظمها الشيخ يوسف النبهاني الذي هو من أشعر شعراء العصر. وكانت القصيدة مطبوعة منشورة، وكانت معلّقة ضمن إطار في دار أبي الهدى بالأستانة.

فاتّفق بعد ذلك بقليل أن وقعت مناقشة تعرّض فيها سليم سركيس لي وحمل عليَّ، وأخذ بالتشنيع في حقّي. ومن جملة ما لجأ إليه لإلحاق الضرر بي أنه أخذ ينشر هذه الأبيات في جريدة كان يصدرها بمصر ويضعها تحت اسم الجريدة، ويضع تحتها "الأمير شكيب أرسلان" ليوهم أنها من نظمي، مع أنه كان يعرف جيِّدًا أنَّ هذه الأبيات ليست لي، ولكنَّه كان يقصد إيقاعي في غضب الدولة.

وبقي سليم سركيس نحو سنة يصدِّر جريدته بهذه الأبيات مذيّلة باَسمي، ولم يصبني بسببها أدنى ضرر ولا أصاب الناظم الحقيقي، بل كان يشغل منصبًا عاليًا في

---

* بقلم أمير البيان الأمير شكيب أرسلان.

العدليّة في بيروت ولم تكن الدولة تلتفت إلى أمور كهذه. على أني، إظهارًا للحقيقة، كنت نشرت واقعة الحال وأوضحت أنَّ هذه الأبيات هي للشيخ النبهاني من قصيدة مشهورة مطبوعة منشورة، معلّقة في منزل الممدوح السيِّد أبي الهدى في دار السعادة.

ولكنَّ تكرار نشر سركيس لهذه الأبيات بإمضائي، وعدم اطّلاع الكثيرين على ذلك البيان الذي نشرته، خيَّلا لهم أنَّ الأبيات هي فعلاً من نظمي. وطالما صادفتُ أناسًا كانوا يهنّئونني عليها ويترنّمون بها، وكنت أقول لهم: وددت لو أني أبو عذرتها، ولكنَّ الحقّ أحقّ بأن يقال وهو أنَّ أباها هو الشيخ يوسف النبهاني.

ثمَّ إنِّي كنت أنظر مرّة في جريدة عربية صادرة في أمريكا الجنوبية، فإذا بقصيدة حماسية تتعلّق بحرب طرابلس الغرب منشورة في تلك الجريدة، موضوع تحتها «شكيب أرسلان»، والشطر الأول من هذه القصيدة فيما أتذكّر: «الله أكبر سيف الحقّ مسلول...».

فدهشت لرؤية إمضائي تحتها لأنها قصيدة لم أكن أنا قائلها، وعذراء لم أكن ناجلها. ونشرتُ في جريدة «البيان» بنيويورك تكذيبًا لهذه النسبة، لا حياءً بنظمها ولا تبرّؤًا من تبعتها، ولكن تقريرًا للواقع.

وكانت لي في حرب طرابلس قصائد أخرى، لكن هذه القصيدة لم تكن لي، والذي يظهر لي هو أنَّ أديبًا نَظَم هذه القصيدة ولم يضع إمضاءه عليها، فبقيت غفلاً. ولمَّا كنت أنا قد شهدت جهاد طرابلس وبقيت نحو ثمانية أشهر في الجبل الأخضر مجاهدًا بالسيف والقلم معًا، كما كانت تقول بعض الجرائد الإيطالية، وكنت نظمت ونثرت عن تلك الحرب وسارت كلماتي عنها، ظنّ بعض من اطّلع على تلك القصيدة، وهي غُفل من الإمضاء، أنه لا بدّ أن يكون ناظمها «شكيب أرسلان» لأنه هو الذي ينظم وينثر في ذلك الميدان، وبناءً على هذا الظنّ وضع إمضائي عليها.

ثمَّ إنِّي كنت مرّة في جنيف أزور أحد الشرقيين، فحانت منّي التفاتة إلى مجلّد

مخطوط على منضدّته. ففتحته، فوجدت فيه أبياتًا شعرية منتخبة، من جملتها بيتان قيلا في هجو أحد أمراء الشرق ممّن ليس اليوم على عرشه، وفي هذين البيتين بذاءة زائدة. وما راعني إلاّ أن رأيت اسمي تحتهما. فغضبت وقلت لصاحب المخطوط: من أنشدك هذين البيتين الساقطين، ومن قال لك إنَّهما من نَظمي؟ فقال لي: لا أتذكّر من قال لي ذلك، وإنَّما هكذا سمعت. فقلت له: أنا في حياتي كلّها ما هجوت مخلوقًا ولا هجوًا بسيطًا، فكيف أنزل إلى قاذورات كهذه؟ وفي الحال ضربت على اسمي الموضوع هناك أفكًا وزورًا. والذي أظنّه أنَّ قائل هذين البيتين أراد أن يخفي اسمه حياءً بهما أو خشيةً من طائلتهما، فألصقهما بي. وتناقل ذلك بعضهم حتَّى خُيِّل أخيرًا أنهما لي، لأنَّ الخلق جميعًا لا يعلمون مشرب الشاعر، ويكفي عندهم أن يقول الشعر حتَّى يصدِّقوا نسبة أيّ شعرٍ إليه.

ونظير ذلك قصيدة أخرى نظمها شاعر لبناني درج منذ بضع عشرة سنة، وهي تنال من أحد كبراء لبنان. ولمَّا كان الناظم الحقيقي قد أخفى اسمه، أخذ الناس يرجمون في أمر قائلها، فكنت أنا من جملة آبائها. والله يعلم وملائكته تشهد أني بريء منها، بل إنِّي كنت ساخطًا على نظمها وعلى شيوعها لأني أعدّ الهجاء من باب نضح الإناء بما فيه، وتصوير الإنسان لنفسه؛ فالهاجي عندي هو المهجو بعينه ولو كان كلامه صحيحًا.

ومن هذا القبيل أماثيل كثيرة صادفتني في حياتي: منها نَظْمٌ، ومنها نَثْرٌ، ومنها نكات، ومنها وقائع وأفعال، فضلاً عن أحاديث وأقوال. ولم يكن شيء من هذه لي ولا منّي، وإنَّما كانت نسبته إليّ، إمَّا خطأً في الروايات وعدم تثبُّت في النقل، أو عملاً بمجرّد الظنّ والترجيح بدون عَمد، أو تدليسًا وتزويرًا من بعض الأعداء والحسّاد عن قصد وعمد إذا كان ثمّة ما يرجون منه ضررًا.

ولا بدّ أن يكون ما حصل لي من هذا الباب حصل لكثيرين غيري، وربَّما كانت قسمتهم فيه أوفر من قسمتي.

أَفنقول بعد هذه المقدّمة: إنَّه لمَّا كان قد عُزي إليّ شعر لم أُقله، وذلك مرّة أو مرّتين أو ثلاثًا أو عشرًا، وكانت قد وردت هذه النسبة في جرائد سيَّارة أو صحف منشرة، لزم من هذا أن يكون شعري الذي يبلغ مئات من القصائد، ونثري الذي يملأ ألوفًا وألوفًا من الصفحات ـ لأنه محصول قلم يتحرّك من ٤٥ سنة ـ هذا كلّه منحولاً لي ومصنوعًا عليّ وإنِّي أنا لست بصاحبه؟!

لا نظنّ في الدنيا منطقيًّا ولا عاقلاً يقبل هذا القول، بل لا نعتقد أحدًا ذا مسكة من عقل أو حصاة من ذكاء إلاَّ رادًّا هذا القول بمجرّد سماعه. فالحادثة والحادثتان والحوادث النادرة لا يُبنى عليها حكم عامّ أبدًا.

وإذا اتَّفق لعمر بن الخطّاب أن قال مرّة لحسّان: أَرُغاءً كرغاء البعير؟ أيكون ذلك دليلاً على أنَّ عمر منع الشعر وأنَّ حسانًا لم يكن ينشده؟ ثمَّ ينقض ذلك كلّ ما ورد من الروايات الأخرى البالغة حدّ التواتر من إنشاد عمر للشعر واستنشاده إيّاه، وكون الرسول (ﷺ) قال: إنَّ من البيان لسحرًا ومن الشعر لحكمة. وإنَّه، صلَّى الله عليه وسلَّم، وصحابته كانوا يروون الشعر ويهتزّون له ويرتاحون إلى سماعه كسائر العرب.

أمَّا طه حسين، فبحسب قياسه المعهود ومنطقه الذي مشى عليه في كتابه عن الشعر الجاهلي، فجديرٌ بأن ينكر صحّة نَسْب شعري إليّ بأجمعه، لعلّة أنَّ سليم سركيس عزى إليّ أربعة أبيات هي من نَظم النبهاني، وأنَّ جريدة عربية في أمريكا نشرت قصيدة عن حرب طرابلس نحلتني إيَّاها وليس لي بها عِلْم، وأنَّ مخطوطًا في جنيف تضمّن بيتَين وُجد تحتهما اسمي ولم يكونا لي، وهَلُمَّ جرًّا.

- تقليد الأوربيين في ما ليس من علومهم

وليس طه حسين، في هذا الرأي الفائل والمنطق المقلوب، إلاَّ مقلِّدًا لمرغليوث أو لغيره من الأوربيين بسائق عقيدة سخيفة فاشية ـ ويا للأسف ـ في الشرق وهي أنَّ الأوربي لا يخطئ أبدًا، وأنه من حيث اخترع الأوربي سكّة الحديد والغوّاصة والطيّارة والسيّارة والتلغراف اللاّسلكي وما أشبه ذلك، فلا شكّ أنه صار يفهم جيميّة الشمّاخ

ولاميّة الشنفرى، أحسن ممّا يفهمهما سيبويه والخليل بن أحمد. وإنَّه لمَّا كان قوله هو الفصل في الكيمياء والطبيعيّات والطبّ والهندسة... إلخ، لزم أن يكون قوله الفصل أيضًا في المفاضلة بين الفرزدق وجرير والأخطل! وليس في الدنيا خطأ أعظم من هذا ولا طيش يفوت هذا الطيش؛ فكلّ عِلْم له أربابه الذين هم أدرى به. وإنَّ راعي الضأن لأدرى من أرسطاطاليس في صنعته. ثمَّ إنَّ هذا الرأي يخالف على خطّ مستقيم مبدأ الأخصّاء الذي يعوِّل عليه الأوربيون والذي يمنع الفوضى في العِلْم.

وبعد هذا، فقد أولع الأوربيون بخصال ولوعهم بها لا ينفي كونها خطأ، لا سيَّما أنَّ الغربيّ وإنْ بذّ الشرقيّ في العلوم المادّية، فلم يبذَّهُ في العلوم الأدبية ولا العقلية. وأنَّ المحقّقين من الغربيين معترفون بمزيّة الشرقيين في الفلسفة والمنطق، مُقِرّون بأنَّ الشرق هو منشأ الحكمة ومهد المدنيّة. وعلى كلّ الأحوال، لا يقدر أحد أن يقول إنَّ الشرقيين ليسوا أدرى من الغربيين بآداب الشرقيين ولغات الشرقيين. ولا يقدر أحد أن يدّعي أنَّ مرغليوث وغيره من المستشرقين يستطيعون أن يفهموا الكلام العربي أكثر من علماء العرب، أهل اللسان الذي نشأوا فيه. وإنَّ من أحمق الحمق أن يُظَنّ أنَّ مرغليوث لكونه إفرنجيًّا صار يميِّز الشعر المصنوع على لسان الجاهليّة من الشعر الجاهلي الأصلي، وأنه صار يظهر له فيهما ما يخفى على مثل سيبويه والخليل والفرّاء والأخفش والمبرّد وابن دريد وأبي علي الفارسي وابن جنّي والزمخشري وأقرانهم ممَّن لا يحصيهم عدد ولا يحويهم بلد. وهم جهابذة العربية وصيارف اللغة الذين يعرفون في لحظة صحيحها من بهرجها وأصيلها من هجينها، وإذا تليت عليهم القصيدة عرفوا مَن نسجها من أول بيت فيها، وذلك لشدّة مرانهم هذا الأمر ولكونهم وقفوا أنفسهم على خدمة هذه اللغة وأنفقوا جواهر أرواحهم من المهود إلى اللحود في تنقادها، وإنَّهم قوم عاشوا بها وماتوا عليها، ونخلوها وعجنوها وطبخوها وجعلوها قوتهم الدائم، فامتزجت بلحمهم ودمهم وتمثّلت فيهم، وكادت كلّ جارحة من جوارحهم تنقل آثارها، وكلّ شاعرة من شواعرهم تحمل شعارها، فكيف يقدر مستشرق أوربي، نسبته إلى هؤلاء نسبة عربي تعلّم الإنكليزي إلى شكسبير، أن يدّعي

كونه فهم من لغة العرب ما لم يفهموه، وانتبهَ فيها إلى ما غفلوا عنه، وأنه عرف الدخيل من الأصيل، وحقّق أنَّ الأصيل من شِعر الجاهليّة نزر لا يكاد يُذكر، وأنَّ الشعر الذي يقال إنَّه جاهلي والذي جمعه المفضّل الضبّي في مجموعه، وأبو تمّام في حماسته، والمعلَّقات السبع التي حفظتها العرب من حاضر وباد، وسار ذكرها في البلاد، كلّ هذا مصنوع ملفَّق مرتَّب بعد الإسلام، نظمه شعراء مولّدون ونحلوه شعراء قالوا إنَّهم وجدوا في الجاهليّة، والحال أنه لم يتحقَّق وجودهم أو وُجِدوا ولم يقولوا هذا الشعر! نعم، خفي هذا عن فحول العربية المقرمين، وأنشدوا هذا الشعر على أنه لعلقمة الفحل ولامرئ القيس وللأعشى والنابغة وعروة بن الورد، وهَلُمَّ جرًّا، وبنوا عليه النحو الذي وضعوه والصرف الذي ابتدعوه والاشتقاق الذي لحظوه والمفردات التي جمعوها، لا، بل بنوا عليه ذلك العروض وتلك الأوزان والأرجاز والحداء والغناء وكلّ شيء انفهق به فم عربي. وكانوا في هذا كمَن بنى على أصل فاسد أو وقف على جرفٍ هارَ وهو لا يعلم ما تحته!

كلاَّ، لعمري إنَّ أئمّة العربية الذين لم يذكر التاريخ أنَّ أمّة خدمت لغتها ونصحت لسانها وحرّرت صرفها ونحوها بمقدار ما حرّروا هم لغتهم وضبطوها وبوَّبوها ونقَّحوها وهذَّبوها عرفوا منها الصحيح من العليل والأصيل من الدخيل والمطبوع من المصنوع. وأشاروا إلى ما ثبت أو ترجَّح أنه وُضع بعد الجاهليّة، وأنه نحل غير قائله، وهو بالقياس إلى الشعر الثابت لأهله أشبه بالثمد بالقياس إلى الغمر، فلم يدعوا، رحمهم الله، قيدًا فالتًا ولا رعيًا مهملاً ولا سقيًا مُبَهْرَجًا. وعلى فرض أنه غابت عنهم أشياء لأنَّ كمال العلم ليس من صفات البشر، فليس مرغليوث ولا مستشرقة الإفرنج هم الذين يقدرون أن يعقّبوا على أئمّة اللسان العربي وأن يصلحوا خطأهم، لا سيَّما في المسائل اللغوية البحتة. وليس للضالع أن يفوت شأو الضليع، وليست صفة كون هؤلاء المستشرقين إفرنجًا بالتي تضمن لهم العصمة عن الخطل والزينة لدى العطل. إنَّنا عرفنا كثيرًا من هؤلاء المستشرقين بالذات، وحادثناهم، ونفضنا ما عندهم ومنهم من يُعَدّ في الطبقة الأولى من هذا الجنس، ولا ننكر ما عندهم من علوم واسعة وآراء

صائبة ونظرات دقيقة ولمحات عامّة وطرق في البحث جليلة، وأنَّ منهم مؤلّفين عِظامًا ومنقّبين دهاةً، ولكنّنا لا نتردَّد في القول إنّنا لم نجد منهم واحدًا ـ إذا رجعت المسئلة إلى العربية ـ نقدر أن نعدّه عالِمًا وأن نقرنه إلى علماء هذه الأمَّة الحاضرين فضلاً عن الغابرين. وأتذكّر أني لقيت أشهرهم وسمعت منهم الخطأ في العربي، ولكنّنا، نظرًا لكونهم أجانب عن اللسان، نرى قليلهم كثيرًا ونغضي على ضعفهم بما يعجبنا من عنايتهم بلساننا وآدابنا، وهم بعد هذا لهم طرق أخصر في الوصول وأساليب أقرب إلى النظام وملاحظات يساعدهم عليها تعمّقهم في العلوم الأخرى، كما أنَّ معارفهم التاريخية على وجه الإجمال أوسع من معارف الشرقيين.

ـ غرائب بعض الأوربيين

ونعود إلى الخصال التي أُولع بها الأوربيون، وليسوا فيها على حقّ، بل أصبحت عندهم أشبه بمرض أو هوس منها بعادة أو خصلة؛ وذلك أنهم يبالغون في القليل، ويريدون أن يجدوا لكلّ حادثة أسبابًا غريبة وعللاً لا تخطر على البال، فيأتون من هذا النوع بالغثّ الذي يكاد يقيء له القارئ العليم من شدَّة نبوّه وغرابته. ولا يزالون يُغربون في إيراد الأسباب ويتنوّعون في التخرُّصات والتكهُّنات ما شاءت خيالاتهم وما طالت تصوّراتهم، حتَّى يظنّ الإنسان أحيانًا أنه يقرأ أضغاث أحلام وحتَّى تبقى الألفاظ بدون معانٍ. وكثيرًا ما يرمي القارئ بالكتاب جانبًا ويزهد في القراءة ويعدُل عن النظر في ذلك الكتاب الذي قد توجد فيه فوائد في جانب هاتيك السخافات.

ويجوز أن يعلِّل فيلسوف مثل تان Taine، على النمط الخلدوني ـ لكن مع زيادة في الإغراب ـ الحوادث التاريخية التي وقعت في فرنسة، ويبحث عن أصول فرنسة الحاضرة، ويكون قد أصاب الغرض في كثير من أحكامه إنْ لم يكن في جميعها، وذلك لتبحُّره في تاريخ بلاده وإحاطته بأخبار قومه وإكناهه أسرارًا اجتماعية قلَّما عرفها غيره. ويجوز أنَّ جهبذًا آخر مثل سنت بوف Sainte-Beuve، قد أوتي موهبة خاصّة في نقد الرجال وترجم عددًا كبيرًا من رجال أمَّته، فرُزِق في هذا الموضوع

حظًا أيّده فيه من شدّة التتبُّع والاستقراء ما انضمَّ إلى ما عنده من شفوف بصيرة وسداد حجّة. ويليق أنَّ كلّ من أتقن علمًا أيًّا كان ذلك العلم، أو أحاط بواقعة أيّة كانت، أو قتل إحدى المسائل خُبْرًا أن يعلِّل ما شاء عن مقدِّمات ذلك العلم أو أن يدَّعي ما شاء من معرفة أسباب تلك الواقعة أو أن يخوض في ملاحظات اجتماعية وروحية وسياسية واقتصادية كانت هي الأصل في ذلك الحادث، ويجدر به أن يصيب المحزّ ويطبِّق المفصل في أكثر الأحيان إن لم يكن مطلقًا، إلاَّ أنه لا يجوز أن يُوصَف بالإصابة، بل لا يجوز أن يؤخذ بالاعتبار مَن خلا ذهنه من مقدِّمات الموضوع الذي يريد أن يقتحم معركته أو كانت فيه أدواته ناقصة لا يصحّ في العقل أن تبلغ به طائلاً. وإنَّ المعلومات الناقصة لأشدُّ تضليلاً وأسوأ عاقبة على المجتمع من الجهل المُطبَق.

والحال أنَّ الإفرنجي ـ ونرجو أن لا يطالبنا القارئ بالأمثال، فإنّها ممَّا لا تسَعه المجلَّدات، بل كلّ كتاب كتبه الإفرنج عن الشرق يصحّ أن يكون مثالاً بدون استثناء ـ لا يكاد يصل علمه بحادثة أو حادثتين أو ثلاث حتَّى يجعل منها قاعدة ويبني على ذلك حكمًا ويسجِّله إسجالاً ويرخي بعد ذلك عنان تصوّراته، حتَّى لا تعرف نفسك أَفي منام أنت أم في يقظة. انظر إلى تآليفهم عن الشرق والشرقيين سواءً في السياحة أو في التاريخ أو في الجغرافية أو غير ذلك، وتأمّل ما فيها، وقارن بينه وبين الواقع الذي تعلمه أنت علم اليقين وتلمسه كلّ يوم بيدك وتنظره بعينك وتسمعه بأذنك ولا تقدر أن تكابر فيه إلاَّ إذا كنت ممَّن يكابر في المحسوس، وانظر البون الشاسع بين ما تقرأه من كلامهم وما هو بين يدَيك لتقضي العجب العجاب.

ليس فيمن يعرف لغة أوربية من الشرقيين إلاَّ من قرأ كتبًا ألَّفها الإفرنج عن سورية وعن مصر وعن بلاد العرب أو عن أمور متعلِّقة بالعرب. وإنَّ تآليفهم في هذه تُعَدّ بالمئات، ونحن نكتفي بالتمثيل بها لأنها أقرب إليك وأجدر بأن تتمثَّل منها الحقيقة. فيقدر أن يقسم الإنسان غير حانث أنه لا يكاد يوجد منها كتاب إلاَّ وهو مشحون خلطًا وخبطًا، مهما يكن من رفعة قَدْر مؤلِّفه ومن شهرته في العلم. وإنَّ الصحيح النادر منها هو الذي خلطه قليل بالقياس إلى غيره.

حتَّى إنَّ رنان نفسه، وهو من أكبر فلاسفتهم ومن أعلَمهم بعلوم الشرق وبلغات الشرق وبفلسفة الشرق، وقد زار بنفسه الشرق وأقام بسورية مدّةً من الزمن، تجد له خلطًا عجيبًا عن الشرق وأحكامًا خيالية، وقد وجد مَن ردَّ عليه وأثبت خلطه ونشر ردَّه باللغة الإفرنسية، ولكنَّ شهرة رنان العظيمة غطَّت على تلك الفضائح. وإنَّ من غريب التصادف أني بينما أنا أحرِّر هذه الأسطر اطَّلعت لرنان على جملة واردة في كتابه "الأناجيل"، يقول فيها ما يأتي أنقله بنصِّه:

"Ali, chez les Schiïtes, est devenu un personnage totalement mytologique. Ses fils Hassan et Hossein sont des personnages réels. Le mythe se greffe frequemment sur une biographie historique".

ترجمة ذلك:

"إنَّ عليًّا أصبح عند الشيعيين شخصًا أسطوريًّا تمامًا، أمَا ولداه الحسن والحسين فإنَّهما شخصان حقيقيان. فالأسطورة تلقَّح في الغالب على ترجمة حياة تاريخية".

لم نفهم ماذا يريد بقوله إنَّ عليًّا صار شخصًا أسطوريًّا. فإن كان مراده بذلك أنَّ الشيعة عظَّموه وبجَّلوه وقدَّسوه حتَّى أخرجوه عن دائرة البشر، فالجواب أنَّ تعظيم الشيعة الإمامية لعليّ لم يبلغ الدرجة التي وصفها رنان، بل هو عندهم أفضل الصحابة وأشرف إنسان بعد الرسول (ﷺ). وهذا غير ما يقول رنان. ثمَّ، لنفرض جدلاً أنَّ عليًّا أصبح عند الشيعة شخصًا خرافيًّا، فما الفرق في ذلك بينه وبين الحسن والحسين؟ لأنه إن كان الغلوّ في شخص يجعله خرافيًّا، فقد غلا الشيعة في أولاد عليّ كما غلوا في عليّ نفسه. والحال أنَّ رنان يجعل بينهما فرقًا، فيقول إنَّ الأب صار خرافة وإنَّ الأولاد أشخاص حقيقيون. وهذا هو الخلط بعينه. وليس في الجملة شيء صحيح إلاَّ قوله: إنَّ الأسطورة تُبنى على أساس ترجمة حياة تاريخية.

أَفمن حيث قال رنان إنَّ عليًّا صار عند الشيعة شخصًا أسطوريًّا، وإنَّ ابنَيه الحسن والحسين شخصان حقيقيان، وجب علينا أن نقبل هذا القول لأنه قاله رنان؟

فإذا كان رنان، وهو من العبقرية الأفذاذ الذين لم تُنجب مثلهم أوربة إلاَّ في الأعصر والقرون، وممَّن درسوا علوم الشرق أكثر من كلّ أوربي آخر، يخلط هذا الخلط ويخبص هذا الخبص، فما ظنّك بمن ليس بعبقري وليس بفيلسوف، ومن ليس نسيج وحده في قومه، ومن ليس بواقف حقّ الوقوف على علوم الشرقيين؟

ومن غريب التصادف أيضًا أنني بينما أحرِّر هذه السطور، تناولت عدد أمس (٩ نوفمبر ١٩٢٨) من جريدة "الطان" وهي كبرى جرائد فرنسة، كما لا يخفى، فوجدتها تقول في فصل عن الحزب الراديكالي:

"Lc groupe se tient, tire entre deux forces contraires, comme le tombeau de Mahomet dans l'espace, immobile".

ومعناه:

"يبقى الحزب تحت تجاذب قوّتين متضادتين أشبه بقبر محمَّد ساكن في الفضاء".

فمن قال إنَّ قبر محمَّد (ﷺ) "ساكن في الفضاء"! ومن ادّعى ذلك من المسلمين؟

ومرّة، قرأت في هذه الجريدة خبرًا عن الحُجّاج يقول فيه: "الذين يذهبون إلى مكّة لزيارة قبر محمَّد"!

ولا عجب في ذلك، فجميعهم لا يفرِّقون بين مكّة والمدينة. وإذا أردنا أن نحصي في أوربة الذين يعرفون أنَّ قبر محمَّد (ﷺ) هو في المدينة لا في مكّة، فربَّما في الستّمائة مليون نسمة الذين تأهل بهم أوربة يوجد ألف شخص.

وعندهم مثل سائر في معنى:

إذا لم تستطع شيئًا فدعه ... وجاوزه إلى ما تستطيعُ

وهو: "قال محمَّد للجبل تقدَّم، فلمَّا لم يتقدَّم تقدَّم إليه محمَّد". أنا أقرأ المثل كلّ يوم تقريبًا في كتاباتهم. فمتى جرى هذا؟ وفي أيّ كتاب ورد من كتب المسلمين؟

نعيد ما قدَّمناه أننا لا نطمع في إيراد أمثال على هذه القضيّة، قضيّة جهل الأوربيين بأمور الشرقيين؛ لأنَّ الإنسان لا يطمع أن يعدّ رمال الدهناء ولا حصى البطحاء ولا نجوم السماء.

وليس من العجيب أن يقع المؤرِّخ الإفرنجي أو الكاتب السياسي أو السائح منهم في الخطأ عندما يتكلَّم على بلاد مرَّ بها عابر سبيل أو أقام بها مدّة من الزمن لم يتمكّن فيها من كشف دخائلها أو قرأ عنها كتبًا قاصرة، وربَّما كان مؤلِّفوها من نمطه. ولكنَّ العجيب الغريب هو زعم الكاتب الإفرنجي إعطاءنا صورة تامّة عن البلاد التي مرّ بها وهو لا يعلم عنها إلاَّ ما سمعه من دليل الفندق أو سائق العربة أو آخرين، جمعته معهم التقادير ممَّن ليسوا في العير ولا في النفير. وترى الإفرنجي مع ذلك لا ينظر إلى نزورة معلوماته في الموضوع الذي يطمع أن يحرِّره ولا إلى قلَّة بضاعته منه، بل يهجم عليه هجوم مَن قتله علمًا وبَقَرَهُ اطِّلاعًا، وتراه لا يروي خبرًا إلاَّ جعل له توجيهًا زعم أنه الواقع، مثل أنَّ كاتبًا شهيرًا منهم جاء إلى طرابلس الغرب أيام الجهاد، وكنت هناك فذكر طبرق في رسالة أرسل بها إلى مجلّة "الأيلوستراسيون" وقال إنَّ بها قبيلة اسمها عائلة مريم ـ وهي من فروع قبيلة العبيدات ـ وإنَّ هذا الاسم باقٍ عليها من أيام ما قبل الفتح الإسلامي أيام كان هؤلاء الأهالي هناك نصارى! ولم يعلم أنَّ هذه القبيلة عربية صرفة، وأنَّ تاريخ هجرة قبائل الجبل الأخضر من جزيرة العرب إلى مصر ثمَّ إلى برقة، معروف. ولم يعلم أنَّ المسلمين يسمّون مريم. وهكذا أكثرهم عندما يكتبون عن الشرقيين يسترسلون إلى خيالاتهم ويجتزئون بمقدِّماتهم الضئيلة ويتسوَّقون من ذلك المتاع الساقط ويقدِّمونه لقرَّائهم على أنه محكم النسج جدير بالاقتناء. وكثيرًا ما يطلقون على هذه الخزعبلات اسم "حقائق"، فيسمّي الواحد منهم كتابه مثلاً "الحقيقة عن سورية" أو "الحقيقة عن مصر" أو "الحقيقة عن مسئلة كذا". ومن شاء فليقرأ جرائدهم ومجلاّتهم، وليقرأ مثلاً: "إنَّ مصطفى كمال منع لبس الطربوش خلافًا للأوامر القرآنية". وما لنا وللشواهد وفي كلّ مطلع بريد يردّ على الشرقيين رزم تنوء بها الجمال من جرائد أوربة ومجلاّتها، وفي كلّ منها من الأحاديث

الغربية عن الشرق والأحكام غير المعقولة على أحواله ما يكفي أن يأخذ منه الشرقيون أمثلة كافية مقنعة وحججًا راوية مشبعة بحيث ينتهون عن هذا المرض: مرض تلقّي أقوال الأوربيين قضايا مسلَّمة حتَّى في ما يهرفون فيه بدون معرفة، ولقد عهدتُ كثيرًا من الشرقيين الذين يحاكمون ويقارنون ويرون ما في روايات الإفرنج عنّا من مخالفة الحقائق، وأحيانًا من مكابرة المحسوسات من لا يملكون أنفسهم تارةً من الضحك وطورًا من البكاء لضياع الحقائق إلى هذا الحدّ...

وقد يجاوب المكابرون: أَفهذا الخلط خاصّ بالغربيين، أَفلم يكن الشرقيون ليخلطوا عند الكلام على الغربيين؟ أَفلم يعهد أنَّ الشرقيين تَسرَّعوا وتهوَّروا كما تهوَّر بعض الإفرنج؟

والجواب أننا لا ندَّعي كون الشرقيين أعلَم من الغربيين وحاشا أن نقول هذا، بل أولئك اليوم على وجه الإجمال أعلَم منّا بلا جدال. ولكنَّ المصيبة القاتلة هي أنَّ الشرقي يتّهم أخاه الشرقي في نقله ويسفِّهه في عقله ويحتقر رأيه ولا يقبل له قولاً لمجرّد أنه شرقي، ولا يضيِّع الوقت بزعمه في قراءة كتبه، حتَّى إذا اطَّلع على تأليف أوروبي ولو محشوًّا بالهذيان تلقّى ما فيه نازلاً من السماء وعضّ عليه بالنواجذ وأبى أن يرتاب فيه أو يحاكمه. وإذا وجد ثمّة أشياء تخالف المحسوس ابتغى وجوه التأويل كما يفعل العلماء بالكتب المقدَّسة، وكما يقول الإمام الغزالي فيما إذا تعارض العقل والنقل. ولكنَّ علماء الدين قد يتسامحون في التأويل ويجعلون الحكم النهائي للعقل ويطبّقون الوحي عليه. وهذه الفئة الضالّة من الشرقيين تأبى أن تناقش الغربي الحساب على شيء، بل تقبل كلّ ما يقوله صبرة بلا كيل ولا وزن. ومن هنا نشأ ما نحن فيه من الأزمة الأدبية والاجتماعية واللغوية والتخبُّط الذي ترانا نتخبَّطه؛ لأنَّ حقائقنا انقلبت ضلالات بلا سؤال، وضلالات الإفرنج تُلقِّيت حقائق بلا جدال. ويكفي القائل أن يكون مسيو أو مسترًا أو هرًّا [وهو السيِّد بالألمانية] أو سنيورًا حتَّى يكون قوله في كلّ مقام فصلاً. وهذا هو البلاء الأعظم؛ لأنَّ الإفرنجي يخبط في الأمور الشرقية خبط عشواء والشرقي يرى بعينه الحقّ ويغالط نفسه، بل الخطب أعظم من

هذا وهو أنَّ بعض الغربيين المنصفين المدقِّقين إذا كتبوا عن الشرق اعترفوا بصعوبة مركبهم وحذَّروا القارئ من قبول كلامهم على علاّته، ولكنَّ القارئ الشرقي - إلاَّ من رحم ربّك - لا يطيعهم في ردّ شيء ممَّا قالوه وكأنه يقول لهم: إنَّ تحذيركم هذا إنْ هو إلاَّ تواضع منكم. وأمَّا نحن فمَن نحن حتَّى نجرؤ على تمحيص كلامكم! كان عندنا في جبل لبنان متصرِّف عاقل يقول لحاشيته: أنا لا أشاوركم حتَّى تقولوا لي: نعم، نعم. وإنَّما أستشيركم حتَّى إذا غلطت تنبِّهونني إلى غلطي. وكان عنده مستشار مداهن موالس، فقال له: ماذا نصنع إذا كنت لا تغلط! أنقول لك غلطت لأجل خاطرك؟ لا تبلغ بنا الطاعة إلى هذا الحدّ. وهكذا نحن لا نريد أن نقول للأوربيين: إنَّكم غلطتم، ولو حذَّرونا من تلقّي جميع أقوالهم قضايا مسلَّمة. فالأوربي عندنا فوق الغلط. وإذا غلط لزم التأويل. وكما أننا أخذنا عنهم الكيمياء والطبيعيّات والهندسة والطبّ والاقتصاد والعلوم الاجتماعية، فيجب أن نأخذ عنهم علم العربية وأن نقبل أحكامهم مسمَّطة على لغتنا وأدبنا وشعرنا وعلى تاريخ جاهليّتنا وإسلامنا، وأن نذعن لما يقوله بعض المستشرقين المتنطِّعين الذين يجعلون الحادثة والحادثتين قاعدة وينسون أنَّ القاعدة إنَّما هي مجموع الحوادث وأنَّ في الفقه القديم يبقى على قدمه. ثمَّ إنَّ فيه الضرر يزال ولو كان قديمًا، وإنَّ هذا لا يُعدّ تناقضًا، لأنَّ كلّ مقال منهما له مقام وأسباب خاصّة به، ولا يمنع ذلك من وجود القواعد الكلّية. وأمَّا هؤلاء المستشرقون المتنطِّعون - ولا يطلق هذا إلاَّ على نزر منهم - فإذا عثروا على حكاية شاردة أو نكتة فاردة في زاوية كتاب قد يكون محرّفًا، سقطوا عليها تهافت الذباب على الحلواء وجعلوها معيارًا ومقياسًا، بل صيَّروها محكًّا يعرضون عليها سائر الحوادث ويغفلون أو يتغافلون عن الأحوال الخاصّة والأسباب المستثناة واقتضاء الزمان والمكان.

ويرجع كلّ هذا التهوّر إلى قلّة الاطِّلاع من الأصل، هذا إذا لم يشب ذلك سوء قصد؛ لأنَّ الغربي لم يبرح عدوًّا للشرقي ورقيبًا له - والنادر لا يُعتدّ به - ومن الغربيين من لم يتعلَّم العربية إلاَّ على أمل أن يتتبَّع العورات ويحفظ المثالب ويتَّخذ من أعمالنا حجّة علينا مثل الأب لامنس اليسوعي، ومثله الدكتور هارتمان الألماني، وكلاًّ منهما

قد عرفتُ. وكان هارتمان من أشهر المستشرقين، ومع هذا قرأت له مرّة فصلاً ينفي فيه بعض الأحاديث النبوية في حقّ الترك، ولم يكن نفيه ذلك الحديث لنزوحه عن العقل أو لمعارضته لأحاديث أخرى أو لضعف في أسانيده، بل زعم أنَّ الحديث موضوع لأجل تكبير مقام النبي (ﷺ)، وإلاَّ فالنبي قد يكون لم يسمع بذكر الترك! فالمستشرق الشهير الذي يظنّ أنَّ النبي (ﷺ) لم يسمع بذكر الترك، ولقد كان أقلّ بدوي جاهلي يسمع بهم لا يكون بدون شكّ إلاَّ جاهلاً أو متحاملاً. ومثل هؤلاء لا ينبغي أن يُسمع كلامهم في تاريخ العرب والعربية، فضلاً عن أن يؤخذ به حجّة.

ـ الشعر الجاهلي والإسلام

ولينظر القارئ في الأسباب التي زعمها بعضهم لتزوير شعر على لسان شعراء الجاهليّة لم تقُله شعراء الجاهليّة. فقد قالوا: إنَّ الإسلام أراد أن يطمس كلّ ما تقدّمه وأن يمحو كلّ أثر للأديان السابقة كالوثنية واليهودية والنصرانية والصابئة، فرُفع من بين العرب بعد الإسلام الشعر الجاهلي الحقيقي وتبدَّل به شعرًا مصنوعًا مقلّدًا به نسق الجاهليّة، كما يزوِّر بعض الناس قطع العاديّات ويبيعونها على أنها وُجِدت في أثناء الحفر تحت الأرض، وهي في الحقيقة جديد في هيئة قديم. إنَّه لم يقُل هذا القول كثير من الأوربيين، بل الجمهور من مؤرِّخيهم على أنَّ شعر الجاهليّة هو شعر الجاهليّة، ولكن قاله بعضهم وتابعهم على ذلك نزر منّا حبًّا بالشهرة وغرامًا بالمخالفة. وقد يكون هناك غرض أو مرض لأنه ممَّا لا مشاحة فيه أنَّ العالم الإسلامي يجتاز أزمة اجتماعية شديدة تتجلَّى أعراضها تارةً في الدين، وتارةً في اللغة، وتارةً في الزيّ، وتارةً في السياسة، وهَلُمَّ جرًّا.

ـ لا مصلحة للإسلام في تعفية آثار ما سبقه

والجواب على هذا الزعم يطول جدًّا، إلاَّ أنه يتلخَّص في الأمور الآتية:

الأوّل: ليس بضروري لإعلاء كلمة الإسلام أن يلتزم المسلمون تعفية كلّ أثر من آثار الديانات التي سبقته وأن لا يبقى لها ذكرًا ولا عنها خبرًا، بل ممَّا يزيد في بيان فضل الإسلام وإظهار طوله وقوّته أن يعلم الناس أن قد سبقته أديان عريقة ومِلَل طويلة عريضة عميقة، وأنه جاء هو ضعيفًا، فما زال يقوى ويتمكَّن بحول الله حتَّى اقتلع تلك الأديان من جذورها ولم يبقَ لها أثرًا في جزيرة العرب. ولعمري أنَّ حفظ ذكرى هاتيك الأديان كان ضروريًّا لتبيين الفرق بين الحالة السابقة والحالة اللاحقة، وليعلم الناظر المتأمِّل كيف نقل الإسلام العرب من عبادة الشجر والحجر وأصنام العجين إلى عبادة الإله الواحد الذي لا إله إلاَّ هو، ومن وأد البنات إلى الرحمة، ومن البغاء إلى العفّة، إلى غير ذلك ممَّا كانوا فيه وصاروا إلى عكسه. وحسبك أنهم كانوا منحصرين في فيافي الجزيرة وأنهم لم يكن لهم ملك ولا سلطان، وكانت تغزوهم الأعاجم في عقر دارهم، وكانت الأحابيش تقتل رجالهم وتستبيح نساءهم في وسط بلادهم. فجاء الإسلام وملَّكهم أعظم أقطار العالم ومكَّنهم من نواصي الأمم، فمن الضروري للبرهان على عظمة ما صنع الإسلام من خير للعرب تذكيرهم بالبيئة السابقة الذليلة، كما أنَّ تراجم الفاتحين الكبار كقيصر والإسكندر ومحمَّد الفاتح وصلاح الدين ونابليون وكلّ الغزاة المشهورين، لا تتمّ ولا يظهر بهاؤها ولا يعرف فضل الذين تحدَّث عنهم إلاَّ بذكر الملوك والأمم التي قهرها أولئك الفاتحون وبضدّها تتبيَّن الأشياء. ويا ليت شعري هل يخسر الإسلام أم يكسب إذا قيل إنَّ العرب في الجاهليّة كان منهم قبيلة تعبد صنمًا من عجين، فلمَّا أصابتها مجاعة أكلته، وقال الشاعر في ذلك شعرًا، أَيطمس الإسلام شعرًا يُستدَلّ به على مقدار فضله؟ إنَّ ذلك لغير معقول.

- القرآن ملآن بذكر الديانات السابقة وأخبارها

الثاني: كيف يكون الإسلام تعمَّد طمس ذكر الأديان السابقة على حين أنَّ القرآن المجيد الذي هو مشرق الإسلام وينبوع الإيمان ملآن بذكر هذه الأديان السابقة وأخبارها وسيرها، ريّان بتعظيم أنبيائها وتكفير من خالفهم. وهو لا يفتأ يخاطب بني إسرائيل

ويذكر نوحًا وابراهيم واسماعيل واسحق ويعقوب ويوسف وموسى وهارون وداود وسليمان وزكريّا ويحيى إلى عيسى بن مريم، وهناك التعظيم الأعظم، وهناك كلمة الله ألقاها إلى مريم، وهناك ذكر الحواريين، وهناك ذكر الرهبان والقسِّيسين. وماذا يريد الإنسان من إحياء ذكرى هؤلاء الأنبياء أكثر ممَّا ورد في القرآن الكريم، بل القرآن لا يجعل الإسلام دينًا جديدًا ولا ملّة مستأنفة، بل يجعله ملّة ابراهيم حنيفًا انحرف الناس إلى ترّهات ضلال، فجاء يردّهم منها إلى المحجّة، وطال الأمد عليهم فقست قلوبهم، فجاء يجدِّد فيهم بشاشة الإيمان ويرقرق ماء الحياء. وكما يؤيِّد القرآن التوراة يؤيِّد الإنجيل، ويقول إنَّه لم ينزل على قلب محمَّد (ﷺ) إلاَّ تصديقًا لما بين يدَيه من التوراة والإنجيل. والحاصل لا يكاد الإنسان يجد في العربي على سعة بحره كلامًا يكيّل به مقدار حماقة أولئك القائلين إنَّ الإسلام زوّر على شعراء الجاهليّة شعرًا لم يقولوه، ورفع من بين أيدي الناس الشعر الذي قالوه، وذلك ليمحو ذكر كلّ ملّة جاءت قبله وأثر كلّ عقيدة سبقته! عندما يكون القرآن شمس الإسلام من أوله إلى آخره لا تكاد تخلو منه صفحة من أذكار هاتيك المِلَل والنِّحَل، لا بل من أخبار الوثنيّة نفسها التي ذكر القرآن أصنامها كاللات والعزَّى ومناة الثالثة الأخرى وغيرها من الأصنام.

- ما بأيدينا من الشعر الجاهلي خليق بعصره

الثالث: يقول هؤلاء السخفاء إنَّ أولياء أمر الإسلام إنَّما أرادوا ليطمسوا شعر الجاهليّة الأصلي تأييدًا للإسلام وإخناءً على كلّ شيء خالفه، وإنَّهم صنعوا على ألسن شعراء الجاهليّة شعرًا لم يقولوه وذلك بعد البعثة بقرون! والحال أنّا لا نرى هذا الشعر المصنوع الذين يقولون عنه مؤيِّدًا الإسلام في شيء، أفتراهم محوا شيئًا ثمَّ عملوا عنه نسخة أخرى طبق الأصل؟ فما فائدة هذا العمل إذًا وهو العمل الذي ارتكب له التزوير الذي لا يعدِّل إثمه شيء. إنَّنا نرى الشعر المنسوب إلى الجاهليّة الذي بين أيدينا نتدارسُه شعرًا خليقًا بالجاهليّة تؤخذ منه جميع أوضاع الجاهليّة، ونرى أولئك الشعراء مشركين ويهودًا ونصارى وكلّ فئة شعرها تَشْتَمّ منه رائحة دينها. وقد

نقل المسلمون أشعارهم كما هي بحذافيرها، لم يسقطوا منها شيئًا ولم يخرموا حرفًا وأقرأوا ذلك في مساجدهم ورووا أشعار اليهود وقالوا إنَّهم يهود، لا بل لم يبلغ شعر من الشهرة ما بلغته قصيدة السموأل اليهودي، ورووا شعر أميّة بن أبي الصلت والأخطل والعبادى والقطامي وغيرهم من شعراء النصارى، وقالوا إنّهم نصارى. وروى النبي (ﷺ) كلام قس بن ساعدة أسقف نجران، ونقل علماء الإسلام خبر وفد نجران على الرسول وعلى رأسهم أسقفهم أبو الحارث بن علقمة ابن ربيعة. ورووا افتخار الأخطل بنصرانيّته وبامتناعه عن الإسلام عندما قال:

ولستُ بصائم رمضان عمري ... ولستُ بآكل لحم الأضاحي
ولستُ بقائلٍ ما عشتُ يومًا ... قبيل الصبح حيَّ على الفلاح

ورووا كيف تنصَّر النعمان بن المنذر في قصّة مآلها أنَّ النعمان أراد قتل حنظلة الطائيّ، فاستأذنه حنظلة أن يذهب ويودِّع أهله. فأذن له النعمان على شرط أن يقدِّم كفيلاً وأنه إن لم يرجع قتل النعمان الكفيل، فلمَّا كاد ينقضي الميعاد، هَمَّ النعمان بقتل الكفيل، وبينما هو يريد أن يفعل إذ رأى غبارًا من بعيد، فانتظر، فإذا حنظلة مقبل يشتدّ في السير حتَّى يصل ضمن الميعاد ولا يُقتَل كفيله. فلمَّا وصل قال له النعمان: ما حملك على هذا الاهتمام في الوصول قبل انقضاء الموعد وأنت تعلم أنك آتٍ إلى القتل؟ قال له الرجل: حملني على ذلك الوفاء. فقال النعمان: وما السبب في شدّة وفائك هذا؟ قال له: ديني. فقال له النعمان: وما دينك؟ قال الرجل: النصرانيّة. فتنصّر النعمان. هذه الرواية وغيرها من مفاخر النصرانيّة رواها المسلمون قبل النصارى. ولم تتحرَّج صدورهم بها لأنهم كانوا ينصحون في الرواية ويتحرّون في النقل إلى الدرجة القصوى، حتَّى أنهم نقلوا كلّ ما قيل من شتم الرسول (ﷺ) كما نقل الحواريون كلّ ما قيل من شتم عيسى (ﷺ). وروى رواة الإسلام كيف كان كعب بن الأشرف اليهودي يهجو النبي ويؤذيه، ورووا جميع أخبار يهود قريظة والنضير وفدك وخيبر وأنشدوا الأهاجي التي قيلت في رسول الله وأصحابه، ومنها:

لعبت هاشم بالدين وما نبأٌ جاء ولا وحيٌ نَزَلْ
ليت أصحابي ببدرٍ علموا جزع الخزرج من وقع الأسلْ

وأوردوا الشبهات التي كان أعداء الإسلام يوردونها على الإسلام، فتجد كتب السير مشحونةً بتلك الأقوال التي يدلّ استقصاء المسلمين شواردها على أنَّ قضيّة الحذف والطمس التي يتشدَّق بها بعض المستشرقين ومن تابعهم من مرضى القلوب من الشرقيين لم يكن المسلمون منها في ورد ولا صدر. وقد روى المسلمون شعر عُدَيّ بن زيد الذي كان نصرانيًّا، وقال عنه أبو عبيدة: هو في الشعراء كسهيل في النجوم يعارضها ولا يجري مجراها. ورووا شعر المتلمِّس النصراني وشعر البرّاق بن روّاحة التميمي وشعر بسطام الشيباني وشعر حنين الحيري وشعر القطامي، وكلّ هؤلاء كانوا نصارى معروفين. أمَّا الأخطل، فسُئِل عنه حمّاد الرواية، فقال: ما تسألونني عن رجل حبَّب شعرهُ إلى النصرانيّة. ولمَّا امتدح بني أميّة قال له الخليفة: يا أخطل، أَتريد أن أكتب إلى الآفاق أنك أشعر العرب؟ قال: إنِّي أكتفي بقول أمير المؤمنين. وكذلك روى المسلمون كيف أنَّ السيِّد والعاقب من أساقفة نجران وفدا على النبي (ﷺ) وجادلاه. وكذلك روى المسلمون أقوال قسّ بن ساعدة الإيادي وضربوا به المثل في الفصاحة، وشهد له النبي (ﷺ) وذكره وتذكّره، وكان قسّ من أشهر النصارى في الجاهليّة، كما لا يخفى.

ولم تزل حرّية القول عند العرب حتَّى ما بعد الإسلام بزمن طويل، وكان الأخطل ينشد وهو في بحبوحة الدولة الإسلامية:

ولستُ بصائم رمضان عمري ولستُ بآكل لحم الأضاحي
ولستُ بقائلٍ ما عشتُ يومًا قبيل الصبح حيَّ على الفلاح

ولم ينَله أحد بسوء. وأغرب من هذا أنَّ عبد المسيح الكندي النصراني كتب رسالة في الردّ على دين الإسلام بعث بها إلى عبد الله بن اسماعيل الهاشمي في أيام عزّ الدولة العبّاسية وسلطانها، وتناقل المسلمون كلامه ولم يطمسوا منه شيئًا.

وكلّ ما رواه اليسوعيون من تراجم شعراء النصرانيّة وأشعارهم إنَّما نقلوه عن مؤلِّفي المسلمين. وليس بصحيح أنَّ أولئك الشعراء لم يكونوا نصارى وأنَّ النصرانيّة أضافها مؤلِّف "شعراء النصرانيّة" إليهم عمدًا، بل إنَّ قسْمًا كبيرًا من أولئك الشعراء كانوا نصارى بلا خلاف، وقسْمًا آخر نصرانيّتهم لا يمكن الجزم بها. وسواء أكان هؤلاء أمْ هؤلاء، فالذين أوصلوا إلى الخلف خبر أنهم نصارى أو أنَّ بعضهم مختلف في نصرانيّته هم علماء المسلمين. وإنَّ من يقرأ السِّيَر النبوية وتراجم الصحابة كالطبقات الكبرى لمحمَّد بن سعد يعرف أنَّ رواة صدر الإسلام لم يكونوا ليعرفوا نشر شيء وطَيّ شيء من الأخبار والآثار، فكلّ ما اتَّصل بسمعهم نقلوه، وأنهم رووا من الأحداث ما يجوز أن يتَّخذه الخصم حجّة عليهم وما يكون في نظر المجادل أقرب إلى الذمّ منه إلى المدح. وما فعلوا ذلك إلاَّ نصحًا منهم في التبليغ ورغبة في التحرّي، ولقد يبلغون من التدقيق أنهم يوردون عشرين أو ثلاثين رواية كلّ منها بأسانيدها الوافية حتَّى يملأوا بها عدّة صفحات لأجل تحرير جملة واحدة قالها أحد السَّلَف، ويمحصوا كيف كانت تلك الجملة وقد تكون الرواية لا تختلف عن الأخرى إلاَّ بكلمة أو حرف، وقد يكون المعنى واحدًا. وقد وصلوا من هذا المدى إلى حدّ أن عدَّه بعضهم إفراطًا وضياع وقت، وعابوه عليهم وتهكَّموا بهم. ولكنَّ هذا التهكُّم لا ينفي شيئًا من الحقيقة، وهي أنهم نصحوا في النقل وتثبَّتوا في الرواية ولم يملوا على الناس خيالاتهم وتصوُّراتهم ولا تعاوروا كلام الناس بتخرّصاتهم، بل نقلوا ما نقلوه وتركوا الحكم للقارئ. وبالإجمال، وصلوا من تحرير الرواية إلى سدرة المنتهى، ورموا في أمر التمحيص فيها أبعد شأو المرتمى. ولذلك، عندما أشرتُ في إحدى مقالاتي إلى أنَّ خلافة الأربعة الراشدين لم تكن ملكًا مطلقًا كما ذهب إليه الأستاذ الشيخ علي عبد الرازق، واستندتُ في ذلك على الآثار التي بين أيدينا ونوَّهت بما كان من التدقيق والأمانة في النقل عند السَّلَف وجاوبني الأستاذ بشيء من التهكُّم من هذه الجهة، أمسكت عن إكمال هذه المناظرة وقلت: من يماري في حقيقة كهذه، ليس لأحد حيلة في إقناعه، وتركته آسفًا على تمسّكه برأيه.

ـ الحكم العربي لا يعرف طريقة كمّ الأفواه وتقييد الأقلام

الرابع: إنَّ طريقة كمّ الأفواه وتقييد الأقلام والأخذ على الخواطر بأفواه الطرق وحبس هذا القول وإطلاق ذاك ممَّا يعبِّر عن الإفرنج «بالسانسور»، غير معروفة إلاَّ للدول المتمدينة والمجتمعات التي استبحر فيها العمران، ولم يقُل أحد إنَّ سكّان المضارب وإنَّ القبائل الرحَّل ومَن إليهم من سكّان القرى التي أهلها على حال البداوة يعرفون هذا الضرب من ضبط الأحكام وينزعون هذا المنزع في الإدارة، ولا سمعنا أنَّ أميرًا أو مقدَّمًا من هؤلاء كان يترصَّد الأفواه ويأخذ عليها مذاهبها، ويستعرض الخطباء ويستنفض الشعراء عمَّا نثروا ونظموا، فيعقل هذه الجملة ويطلق تلك ويقول: أمَّا هذا البيت فلا، وأمَّا هذا فنعم، إلخ. إنَّ هذا لا يكون عند الأمم التي غلبت عليها سذاجة البداوة وكانت قريبة من الفطرة وأفادتها سكنى البرّية تمام الحرّية، لا سيَّما العرب المشهورين بالأنفة وإباء الضيم والهيام بالحرّية إلى الدرجة التي لم تعرف لقبيل من الدنيا سواهم، فتجد خواطرهم وألسنتهم على نمط مضاربهم ومساكنهم لا تعرف التقيُّد بشيء ولا تبغى إلاَّ الانطلاق. وكلّ أحد يعلم مشربهم في رفع الرسوم وإطراح التكلّف والجهل بقواعد التعظيم وسنن التشريف المعروفة للأعاجم وأنهم كانوا يخاطبون الرسول (ﷺ) والخلفاء بيا محمَّد، يا أبا بكر، يا عمر... إلخ، وأنهم إلى يوم الناس هذا إذا لقوا ملوكهم خاطبوهم: يا عبد العزيز، يا فيصل... إلخ. وقد تناقش مرّة المؤرِّخ التركي أنور باشا مع مؤرِّخ تركي آخر في المفاضلة بين العرب والعجم، فكان ميل المؤرِّخ أنور باشا إلى تفضيل العرب، وكان هوى الآخر مع العجم، وأخذ كلّ منهما يدلي بحجّته. فقال أنور باشا لخصمه في الاستدلال على شمم العرب: انظر إلى العجم في لقائهم أمراء الدولة وولاتها كيف يخضعون أمامهم وينكِّسون أبصارهم ويكادون يقعون على الأرض جُثيًا. وقابل ذلك بطور العرب إذا لقوا رجال الدولة والولاة، فإنَّ العربي يقابل الوزير ورأسه مرفوع ويمدّ يده لمصافحته قائلاً له: كيف حالك يا باشا، كأنَّه يصافح أحد أقرانه.اهـ. وإنَّك لتجد هذا في كبيرهم وصغيرهم لا يعرفون الذلّ لا ما ظهر منه ولا ما بطن، ولا يطيقون طأطأة الرؤوس، ولا يتحمَّلون

التكاليف والرسوم التي عند الأمم المنغمسة في الحضارة، نشأوا على هذا من آلاف من السنين وأبوا أن ينتقلوا عنه كما قال پيارلوتي، الكاتب الإفرنسي الأشهر، وقد سألوه عند احتضاره: أيّة أمّة أحبّ إليك من الجميع؟ فأجاب: العرب، لأنهم أبوا أن يغيِّروا أطوارهم من آلاف من السنين.اهـ. وكيف يغيِّرون أطوارهم وهي فيهم من أثر سكنى الصحارى والضرب في الفلوات ومجاورة الطبيعة القحّة والنشوء على الفطرة الأصلية وعدم استشعار الهيبة. أَفمن كانت هذه أنفتهم وهاتيك شدّة خنزوانتهم، ومن كانوا يقولون للخلفاء في وجوههم ما لا يجرؤ أن يقوله تركي أو فارسي لمختار قريته، ومن كانوا يقولون لعمر: لو رأينا فيك اعوجاجًا لقوَّمناه بسيوفنا، ومن كانوا يقولون لمعاوية: إنَّ السيوف التي قاتلناك بها لفي أغمادها، يقال عنهم إنَّهم أُقيموا على السانسور، وأُخضعوا لبدعة كمّ الأفواه وذلّة بيع الضمائر وعقل الألسنة، وإنَّ هناك شعرًا طُوي عمدًا لئلاَّ يضرّ بالدين والدولة، وإنَّ هناك شعرًا نُشِر عمدًا ووُضع وضعًا لأجل التمويه على الناس. لا والله لم تكن هذه أخلاق العرب، ولا يقول هذا عاقل ولا كان الخلفاء في صدر الإسلام ممَّن يتسفَّلون إلى هذا الحضيض الأوهد ويطوون أقوالاً منشورة وينشرون أقوالاً مكذوبة احتياطًا من وراء دينهم. ولم يكن خامرهم فيه الشكّ حتَّى يحتاطوا له بالكذب والبهت، بل لم يورد كتّاب السِّيَر النبوية ما أوردوهُ من الشبهات ومن المطاعن ممَّا قاله أعداء الرسول وأصحابه إلاَّ لأنهم كانوا على بيِّنة من أمرهم، وكانت أقاويل الخصماء لا تزعزع من عقائدهم، والإسلام منذ وُلِد وَلَد صحيح البُنية، فلم يجد السَّلَف أدنى حاجة إلى خدمته بالتمويه وإلى نصرته بالطيّ والحذف. وكان أشدّ الناس اعتقادًا بمحمَّد (ﷺ) أقربهم إليه، وأحبّهم له ولدينه، أعلمهم بأسراره وأوقفهم على عُجَره وبُجَره، مثل زوجته خديجة، ومثل رفيقه في حياته أبي بكر، ومثل صهره عليّ، ومثل خادمه أنس، ومثل خادمه الآخر عبد الله بن مسعود، وهَلُمَّ جرًّا ممَّا قال الكاتب الإنكليزي الشهير في هذا العصر المستر «ولز» إنَّه من أنصع براهين محمَّد لأنه ولو كان هؤلاء من أقرب الناس إليه لو علموا عليه ما يريب، أو لحظوا أنه كان يقصد الخديعة، أو أنَّ سريرته غير علانيّته، لانفضّوا من حوله ولم يتمسَّكوا بكلّ كلمة تخرج من فمه، ولم يكونوا يبيعونه أرواحهم ويستعذبون الموت في سبيله.

إنَّ مثل هذه الأمّة الحرّة يجوز أن تقاتله ويجوز أن تسالمه ويجوز أن تُنكر دعواه صرحة برحة، ويجوز أن تقبلها وتراها خير دين لها. وأمَّا أن تخدم صاحبها بالكذب والبهتان، فهذا ما لا يقرّه العقل. ولقد ربّاهم الرسول على الصدق حتَّى لقد ورد في الحديث عنه أنه «ما كان خُلق أبغض إليه من الكذب وما اطَّلع منه على شيء عند أحد من أصحابه، فيبخل له من نفسه حتَّى يعلم أن أحدث توبة»، وربّاهم على الخضوع للحقّ، فقد حدَّثوا أنَّ يهوديًّا أسلف الرسول ثلاثين دينارًا إلى أجل معلوم، فتركه حتَّى إذا بقي من الأجَل يوم جاءه فقال: يا محمَّد اقض حقّي، فإنَّكم معاشر بني عبد المطَّلب مُطُل، فقال عمر: يا يهودي أمَّا والله لولا مكانه لضربت الذي فيه عيناك. فقال رسول الله (ﷺ): غفر الله لك يا أبا حفص، نحن كنّا إلى غير هذا منك أحوج إلى أن تكون أمرتني بقضاء ما عليَّ وهو إلى أن تكون أعنته في قضاء حقّه أحوج. قال: يا يهودي، إنَّما يحلّ حقّك غدًا، ثمَّ قال: يا أبا حفص اذهب به إلى الحائط الذي كان سأل أول يوم فإن رضيه فاعطه كذا وكذا صاعًا، وزدْه لما قلت كذا وكذا صاعًا، فإن لم يرضَ فأعطه ذلك من حائط كذا وكذا. قال اليهودي: فأتى بي الحائط، فرضيت تمره وأعطاني ما قال رسول الله وما أمره من الزيادة. ومن باب خضوعه للحقّ أنه كان يقيِّد نفسه، وأنه أقاد مرّة من خدش من نفسه. وعن سعيد بن المسيب: أقاد النبي من نفسه، وأقاد أبو بكر من نفسه، وأقاد عمر من نفسه. وأخبر سفيان بن عيينة عن عمرو بن دينار عن عمرو بن شعيب: لمَّا قدم عمر الشام، أتاهُ رجل يستعديه على أمير ضربه، فأراد عمر أن يُقيِّده منه، فقال عمرو بن العاص: أتقيِّده منه؟ قال: نعم. قال: إذًا، لا نعمل لك على عمل. قال: لا أبالي، ألا أقيِّد منه وقد رأيت رسول الله (ﷺ) يعطي القود من نفسه. بمثل هذه الأخلاق أحبّ الصحابة صاحبهم وفدوه بأنفسهم وأموالهم وبآبائهم وأمّهاتهم. ولو لم يعلموه على هذه الصفة من حبّ الحقّ ما هاموا بحبّه، وما أطاعوه هذه الطاعة كلّها، وما تمكّن من الغلبة الأخيرة على جميع العرب مع صعوبة مراسها وفرض عنجهيّتها. أَفيقال بعد هذا إنَّ خلفاء الإسلام كانوا يأمرون بوضع الأشعار على الألسن الجاهليّة ويرتكبون الكذب والتزوير خدمةً للإسلام!

- هل اشترك المؤرّخون من سائر الملل في مؤامرة السكوت؟

الخامس: ولنفرض جدلاً أنَّ هؤلاء الخلفاء وهؤلاء العلماء استباحوا - والعياذ بالله - الكذب لأجل تعزيز الإسلام وعملوا بقاعدة أوربية المنْبت، وهي "الغاية تبرِّر الواسطة". فليقل لنا مرغليوث أو طه حسين أو أحد ممَّا يقولون هذه المقالة السخيفة: متى، وأين صدر ذلك المرسوم الإماميّ بأن يطوي شعر الجاهليّة الأصلي، ويستبدل به شعر جديد مصنوع، ويقال: إنَّ هذا هو شعر الجاهليّة؟ وما اسم الخليفة الذي فعل هذه الفعلة ولم يعلم بها أحد على وجه البسيطة؟ أو ما اسم المجمع الإسلامي الذي أصدر هذا القرار، وأين، ومتى انعقد؟ أفلا ترى أنَّ المجمع المسيحي الذي قرَّر الأناجيل الأربعة ورفض ما عداها وقرَّر إحراقها، معروف تاريخه بحذافيره. أَفيمكن أن يكون الإسلام قام بعمل كهذا وأجمع عليه إلاَّ بأمر خليفة أو بإجماع أمّة ولم يعلم بذلك أحد؟ فمَن مِن المؤرِّخين الشرقيين أو الغربيين قال هذا القول؟ ولعلَّهم يقولون - والمُتعنِّت لا يقف عن الاستظهار بأيّة سخافة - إنَّ مؤرِّخي الإسلام قد طووا هذا الخبر أيضًا وتجاهلوا هذا الأمر الذي أقيمت عليه الأمّة وعمسوا هذه الواقعة عمسًا، ومضت القرون، وانطوت الحقب حتَّى أصبح هذا الأمر في الآخر نسيًا منسيًّا! ونجاوبهم أنَّ شيئًا في الدنيا لا يختفي، وأنَّ كلّ سرّ جاوز الاثنين شاع، وأنَّ حادثة كهذه عرف بها مئات وألوف يستحيل أن لا تشيع وأنها إن لم تسجِّلها الكتب حفظها التواتر من عصر إلى عصر.

ثمَّ إنَّ الإسلام لم يكن في علبة مختوم عليها بشمع أحمر ولا في صندوق مقفل، بل كان من أول ظهوره مختلطًا بالمِلَل والأمم الأخرى، خصوصًا بعد أن فتح الفتوحات العظيمة ولفَّ المشرق بالمغرب وضرب بجرانه على آسية وأفريقية وأوربة، فلم يبقَ أمّة في الدنيا إلاَّ استولى عليها أو تعرَّف إليها أو وصلت إليها أخباره، بل آثاره. فلقد كانت المسكوكات الإسلامية متداولة في أقاصي البلاد الاسكندنياقية، فإذا فرضنا المحال وأنَّ جميع مؤرِّخي الإسلام ماتت ضمائرهم ولم يبقَ عندهم أدنى وجدان، ولم يبرز فيهم واحد يقول: يا هؤلاء، لا يجوز لنا الكذب وهذا حديث مُفترى، أَفلم

يكن هناك مؤرِّخون نصارى ويهود ومجوس ومؤلِّفون روم وفرس وهند وقبط وحبش وإفرنج... إلخ. أَفخفيَ هذا الحادث عن جميعهم ولم يعلموا عنه قليلاً ولا كثيرًا، ولا جاءت عنه كلمة في كتاب مع أنهم تعقَّبوا الإسلام في كلّ موضع، وتتبَّعوا عوراته، ونشدوا كلّ حادث يشينه أو ينقصه، ومع أنَّ منهم من افترى عليه البهت ومنهم من وضع من عنده بحقّه، وأنَّ من أهل الكتاب من ألَّفوا تآليف في عهد الإسلام وفي وسط بلاد الإسلام وطعنوا فيها على دين الإسلام، وقرأها المسلمون. أفنقول

الأدب في أكبر جامعة عربية، من كانت تلك العصابة من أدباء العرب بعد الإسلام التي تولّت كبر هذا التزوير العبقري والكذب الذي جاء أبهى من الصدق ممَّا أقرَّتهم عليه دولة الإسلام أو ندبتهم له! ثمَّ أين عاشت تلك العصابة وأين قبعت، وفي أيّ كسر استترت، وفي أيّ سردابٍ خلا بعضها إلى بعض؟ وهل جرى بينها توزيع أعمال، فقيل لهذا: قل أنت قصيدة على لسان الحارث بن حلزة اليشكري، وليقل فلان مقطوعة على لسان تأبَّط شرًّا وأنا أقول كلمة على لسان عمرو بن كلثوم! أفكان هناك مدير للحركة التزويرية، أمْ كان كلّ من هؤلاء يعمل بخاطره وبما يلوح له غير مقيَّد بأمر، ولم يكن لهم بروغرام يسيرون عليه. سبحان الله ما أشدّ انتظام عملهم وأحسن انطباق نظمهم على الوقائع برغم هذه الفوضى... ثمَّ نسأل أيضًا، أكانت هذه الحوادث التي لا تنتهي من حرب وسِلْم، وحبّ وبغض، وفخر وحماسة، ومدح وهجاء، ووعظ ورثاء... إلخ، ممَّا صيغ لأجله هذا الشعر هي أيضًا إيجادًا واختراعًا أشبه بالقصص المسمّى بالرومان، ولم يكن لها أصل إلاَّ في مخيّلة أولئك الوضاعين، أمْ كانت صحيحة وكان وجود أولئك الرجال واقعيًّا، وإنَّما عصبة الشعراء المجهولة هذه جعلت عليها قصائد موضوعة منحولة غير قائليها وسيرتها بين الناس على أنها لهم، فسارت بين الناس على أنها لأولئك الجاهلين. وقيل لِحمّاد والأصمعي وغيرهما، أنشدوها الناس وقولوا إنَّها لفلان وفلان، وقولوا إنَّها أُنشدت في سوق عكاظ، أو قولوا إنَّها عُلِّقت على جدران الكعبة واكتموا حديث الوضع وإيّاكم أن تخبروا به أحدًا وتفضحوا السرّ! وهكذا تمَّ لخلفاء الإسلام ما أرادوا من تبديل الحقيقة، هذا التبديل الذي حرصوا عليه كلّ هذا الحرص ـ لأمر لا نعلمه ـ وبقيت هذه المؤامرة المدبَّرة بليلٍ لم يحسّها أحد، حتَّى كأنها عمل شخص واحد برغم أنَّ الذين قاموا بها ينبغي أنْ يكونوا جمًّا غفيرًا. فالخلفاء وبطانتهم، والشعراء وعصبتهم، والرواة وحلقتهم، وهؤلاء لا يقدرون أن يبثّوا كلّ هذه الموضوعات في العالم الإسلامي إلاَّ إذا كانوا كثيرين، فلِلّه درّهم ما كان أقدرهم على حفظ السرّ! على أنَّ هناك ما هو أغرب وهو أنَّ طه حسين يتّهم بوضع هذا الشعر الرواة الذين رووه، والنحّاة الذين قصدوا به تأييد قواعد النحو واللغة على حدّ حكاية الخنفشار،

والمحدِّثين الذين ابتغوا به تأييد لغة الحديث، والمفسِّرين الذين توخّوا به تعزيز أسلوب القرآن. وينسى أنَّ شعرًا كهذا لا يقوم به إلاَّ شعراء فحول، وأنَّ كلّ الذين ذكرهم لو قاموا له لا يقدرون على مثله. هذا على فرض المحال أنَّ كلّ أولئك العلماء الأجلاّء كانوا مدلسين وضّاعين كذّابين مفترين! يسهل على طه حسين أن يتخيَّل الكذب في العلماء والمحدِّثين والمفسِّرين إلى ذلك الحدّ، والحقيقة أنه ليس بسهل أصلاً وليس بمعتاد ولا بمعقول ولا مقبول. يقول إنَّهم كانوا "أتقياء بررة"، وينسى أنَّ التقوى لا تمتزج مع الكذب والافتراء. ويقول "كان القدماء مخلصين في حبّ الإسلام، فأخضعوا كلّ شيء لهذا الإسلام وحبّهم إيّاه، ولم يعرضوا لمبحث علمي ولا لفصل من فصول الأدب أو لون من ألوان الفنّ إلاَّ من حيث إنَّه يؤيِّد الإسلام ويُعزُّه ويُعلي كلمته؛ فما لاءم مذهبهم أخذوه، وما نافره انصرفوا عنه انصرافًا". ولا يوجد أعرق من هذا الكلام في السفسطة، إذ يجوز أن يكون القدماء مخلصين في حبّ الإسلام وأن يتأبّوا عن خدمته بالكذب والافتراء، ويجوز أن يكون القدماء مخلصين في حبّ الإسلام وأن يجدوه مالكًا من البراهين ما يستغني به عن الاختلاق الذي من عادته أنه يضرّ بالقضيّة التي يراد تعزيزها به أكثر ممَّا ينفعها. ويجوز أن يكون الإنسان صاحب ثروة وأن يتورَّع عن زيادة ثروته بالمال الحرام، لا بل يعتقد أنَّ إضافة الحرام إلى ماله قد تذهب بماله، وإن لم يكن يعتقد بذلك تديُّنًا اعتقد ذلك سياسة وحكمة؛ لأنه يخشى إذا حاول زيادة ثروته بالسرقة أن تعلم الحكومة بسرقته فتعاقبه وتجزيه وتغرّمه بما يذهب بماله كلّه. فالمسلم المخلص في حبّ الإسلام أجدر بأن يتحامى الكذب والتدليس في خدمة الإسلام خشية أن يكون أدخل بهذا التلفيق على براهين الإسلام شوائب لا يلبث أن يفتضح أمرها وأن يعلم أنها أكاذيب فتقع الشبهة حينئذٍ في الإسلام كلّه. وأمَّا قوله إنَّ القدماء من إخلاصهم في حبّ الإسلام "أخضعوا له كلّ شيء"، فجملة لا معنى لها، ولا يفهم الإنسان مراده من قوله "أخضعوا له كلّ شيء". أيريد أن يقول إنَّ الكذب والاختلاق هما من باب إخضاع كلّ شيء؟! أفلا يعلم أنَّ الذي يكذب ويختلق هو الذي ينتهي الأمر بأن يُخضع لا بأن يخضَع له، وإنَّه لا يوجد موطن ضعف أكثر من الكذب، وإنَّه ما عزَّز الإنسان قضيّة يحبّها بمثل

الحقّ، وليس بصحيح أنَّ القدماء «لم يتعرّضوا لمبحث علمي ولا لفصل من فصول إلاَّ من حيث إنَّه يؤيِّد الإسلام»؟! فقد كتبوا من العلم عشرات ألوف من المجلَّدات التي ليست في شيء من الإسلام، ولا نقول إنَّها كانت تناقض الإسلام لأنَّ الإسلام ليس بعدوّ للعلم حتَّى تناقضه، ولكنَّها لم يكن لها تعلّق بالدين ولم تكن جميع مباحث المسلمين منحصرة في الدين. كما أنه ليس بصحيح أنهم لم يتعرَّضوا لفصل من فصول إلاَّ من حيث إنَّه يؤيِّد الإسلام؛ فإنَّ كتب الأدب والمحاضرات إن لم يكن فيها ما يناقض الإسلام فإنَّ فيها كثيرًا من الغزل والتشبيب وأخبار العشّاق، لا بل من المجون والبذاءة والسفاه ما هو كلّه منهي عنه في شرع الإسلام، فكيف يقال إنَّها تؤيِّد الإسلام؟ ولقد نقل القدماء حكمة يونان وحكمة فارس وحكمة الهند وحكم أمم أخرى وكثيرًا من آدابها وقصصها وأمثالها، وليس في ذلك شيء راجعًا إلى الإسلام أو صادرًا عن الإسلام، وإن كان الإسلام لا يأباها. ولقد كان الأخلق بهم ـ لو أرادوا حصر كلّ شيء في الإسلام ـ أن لا ينقلوا هذه العلوم إلى اللسان العربي لأنها علوم أمم وأقوام أجانب عن الإسلام، فالنقل عن الأجانب لا يكون واسطة لتأييد الإسلام. والحقيقة أنَّ كلام طه حسين هذا خلط لا يقوله أطفال، وأنَّ الإسلام حثّ على العلم أينما كان، وقال: الحكمة ضالّة المؤمن، يلتقطها حيث وجدها؛ وبناءً على هذا، نقل المسلمون هذه العلوم ورغبوا فيها.

- متى وقع هذا النظم على ألسن الجاهليين؟

السابع: نسأل طه حسين ومرغليوث أن يتفضَّلا علينا بالتبيين متى وقع هذا النظم على ألسن الجاهليين، في أيّ حقبة من حقب الإسلام، فإنَّ لهذه المسئلة مكانًا خاصًا من الأهمّية، لأنه من المعلوم أنَّ شعر الجاهليّة هو الذي منه شواهد النحو والصرف واللغة وأنه الحجّة التي يُستشهد بها عند التصحيح. ولمَّا كان قد خفي يزعمهم كون هذا الشعر محدثًا مصنوعًا على أولئك الأئمّة: الخليل بن أحمد وسيبويه وأبي عمرو والفرّاء وأبي زيد وابن دريد، وعلى البصريين والكوفيين... إلخ! استشهدوا به في كتبهم وحلقات دروسهم ودوَّنوا هذه الشواهد، لا بل استخرجوا من تلك المفردات

قواعد عامّة وسمّوا ذلك علم النحو وعلم الصرف وعلم اللغة، وأخذ الخليل من أوزان تلك الأشعار علم العروض. فيجب علينا أن نعرف في أيّ دور من أدوار الإسلام وقع هذا الوضع وهذا التزوير؛ لأنه إن كان في زمان الخلفاء المتقدِّمين، فيكون وُضّاع هذا الشعر ورواته قد عاصروا كثيرًا من واضعي النحو وجامعي اللغة؛ وعاصروا أبا الأسود الدؤلي، ولا يُعقل أنهم كانوا في عصر واحد وأنَّ النحّاة واللغويين استشهدوا بشعر وضعه أناس في عصرهم عائشون بين أظهرهم ولم يشعروا بما فعلوه. والحال أنَّ من عاداتهم أنهم إذا ارتابوا في بيت نبذوه ومنعوا الاستشهاد به. وإن كان هذا الوضع متأخّرًا إلى زمن الخلفاء العبّاسيين مثلاً، فلا يعود ممكنًا أيّ تأويل لقضيّة الاستشهاد بهذا الشعر في قواعد النحو واللغة، لأنه يصير زمن الوضع متأخّرًا عن زمن الاستشهاد، أي أنَّ هذا الشعر صُنع بعد أن استُشهد به وبعبارة أخرى أنه متأخر عن نفسه... وهذا محال. فلا يخرجنا من هذا المأزق إلاَّ تعيين تلك الحقبة التي وضع فيها هذا الشعر! ولمّا كان الدكتور طه حكم بأنه موضوع مصنوع وأنَّ الصحيح منه قليل جدًّا، فلا بدّ أن يكون بنى حكمه على مقدّمات كافية من جملتها معرفة أسماء الصانعين والتاريخ الذي صنعوا فيه. ولهذا، كنّا نودّ لو جاد لنا بالتعيين والتوضيح لأنَّ مجرَّد الشكّ لا يكفي مدارًا للحكم كما لا يخفى.

ـ الحقائق لا تكون تحت رحمة الشكوك

الثامن: إنَّ طه حسين يعلن فيما سمعت، أنه لم يثبت عنده من الكلام العربي الذي ظهر في الجاهليّة سوى القرآن. ولا نعلم لماذا لا يعترض على ثبوت المصحف أيضًا؟ فإن كان ذلك من أجل ثبوته بالتواتر من عهد رسول الله (ﷺ) إلى عهد خلفائه الراشدين، وإن الناس اتَّفقوا عند ما جمعه أبو بكر وكتبه عثمان في المصاحف، على أنَّ هذا هو القرآن، وإنَّ اتِّفاق هؤلاء المئات والألوف من الحفاظ لا يمكن أن يكون على باطل. فإنَّنا نقول له حينئذٍ إنَّ هناك أمورًا وحوادث أخرى قد أثبتها التواتر أيضًا، وإن لم يكن بدرجة القرآن من أجل صفته الدينية. فلقد ثبت ثبوتًا لا يحتمل المراء، ومنها هذا الشعر المعروف بشعر الجاهليّة، فهذا ثابت بالعقل والنقل وبالدراية والرواية

أنه شعر قاله شعراء الجاهليّة، وأنه ليس بمصنوع ولا منحول بعد الإسلام، وأنَّ المصنوع منه نزر لا يُذكر قد نبَّه عليه العلماء. وإن قال: إلاَّ أنَّ بعض الناس قد طعنوا في صحّة نسب الشعر الجاهلي، قلنا له: ولكنَّ التمحُّل لا يُبطِل حقًّا ولا يُحِقّ باطلاً، وإنَّ بعض الغلاة من الشيعة، لا جمهورهم، يزعمون أنَّ القرآن الكريم أيضًا حُذف منه وأضيف إليه. وليس هذا القول أكثر من سخف وهراء، وإنَّ الحقائق التاريخية لا تَبْطل بمجرّد تعنُّت متعنِّت أو جحود جاحد. ولقد ذهب عدد من كتّاب أوربة ومؤرِّخيها وفلاسفتها أنَّ المسيح لم يوجد وأنه Mythe أي أسطورة من الأساطير، ولكنَّهم أخطأوا لا لأنَّ الأناجيل ثابتة بالتواتر بالدرجة التي ثبت بها القرآن، ولكن لأنَّ الأدلّة التي أقاموها أضعف جدًّا من الأدلّة القائمة على مجيء السيِّد المسيح (صلوات الله عليه)، حتَّى أنَّ نابليون، عبقريّ الدهر، أورد ريبته في مجيء المسيح أمام أحد العلماء، فقال له هذا: يا مولانا، إنَّه هكذا يبطل التاريخ. فسكت نابليون واقتنع، وكلّ عاقل يذعن للحق. فليس الحقّ إذًا موقوفًا على إثارة شبهة أو على نتيجة منطقية مقدِّماتها فاسدة. «كان القدماء أتقياء يحبّون الإسلام ويريدون تعزيزه. ومن باب تعزيز الإسلام إلغاء شعر كان قبل الإسلام، فلذلك ألغى القدماء كلّ ما قيل قبل الإسلام ووضعوا شعرًا آخر بدلاً عنه»! والحقيقة أنه كان القدماء أتقياء يحبّون الإسلام ويريدون تعزيزه، ولكنَّهم كانوا أتقى من أن يعزِّزوه بالكذب، وأعقل من أن يجهلوا أنَّ الكذب بئس الدعامة وأنه يضرّ أضعاف ما ينفع. ثمَّ إنَّ الشعر الجاهلي الذي بين الأيدي ليس فيه شيء من باب تعزيز الإسلام، فيا ليت شعري لماذا وضعوه؟ وماذا استفادوا منه في قضيّتهم؟ هذا وإنَّ كثيرين من هؤلاء الشعراء الجاهليين عاشوا إلى زمان الإسلام ويقال لهم المخضرمون، ورآهم النبي (ﷺ) ورأوه، وقد جاءه منهم الأعشى ومدحه، وقال له:

فآليتُ لا أرثي لها من كلالةٍ	ولا من وجًى حتَّى تزور محمَّدا
نبيٌّ يرى ما لا ترون وذكرُه	أغار لعمري في البلاد وأنجدا

ومدحه كعب بن زهير بقصيدة بانت سعاد المشهورة، وطرب لها رسول الله (ﷺ) وألقى إليه ببردته الشريفة. ولمَّا وصل إلى قوله:

مهنّدٌ من سيوف الهند مسلولُ

إنَّ الرسول لسيفٌ يُستضاء به

قال له الرسول: من سيوف الله. وهكذا سار البيت من بعدها.

ورأى الرسول (ﷺ) زهيرًا نفسه بعد أن بلغ من الكبر عتيًا، وقال: أَللهُمَّ أعذني من لسانه. ووفد عليه شعراء وخطباء، ووفد على خلفائه من بعده، ورآهم الخلفاء وعرفوهم وعرفوا أنهم آباء ذلك الشعر. وقال عمر: مَنْ أشعر الناس؟ فصار كلٌّ يذكر شاعرًا. فقال لهم: أشعر الناس صاحب ومَن ومَن أي زهير في المعلّقة. وكلّ مَن كان في محيط الخلفاء من صحابة وتابعين وممَّن رأى ورأى من رأى كانوا يعرفون هؤلاء الشعراء ويعرفون شعرهم وما اختلفوا فيه، وإنَّ المختلَف فيه لنزُر لا يُذكر، كما تقدَّم، وما محص العرب شيئًا أكثر ممَّا محَّصوا الشعر. فإذا كان بعد هذا كلّه لا يلذّ للدكتور طه إلاَّ الشكّ، فاليقين لا يزول بالشكّ، كما قال الفقهاء. وبمثل هذه الطرق في البحث لا يبقى تاريخ، كما قال صاحب نابليون لنابليون.

هذا ما عندي من أمر الشعر الجاهلي، وإنِّي لأجدُه فضولاً بعد أن جال في هذا الميدان فحول وفّوا هذا الموضوع حقّه، فحفروا وأنبطوا وغاصوا فالتقطوا وجالوا، فجادوا وأنفسوا وناضلوا فرموا وقرطسوا. ولو لم يكن من هؤلاء الفحول الصائلين سوى الأستاذ محمَّد أحمد الغمراوي، مدرِّس الكيمياء في كلّية الطبّ، في تأليف هذا الكتاب الباهر ذي البيان الساحر والبرهان الذي يقطع الأباهر، لكان مغنيًا عن جولان التالي مع المجلّي وعن مقارنة الإمام بالمصلّي، وإنَّما أردتُ أن أُلقي دلوًا في الدلاء وأكون على هذا الخصل الباهر من جملة الأدلاّء. ولعمري أنَّ الجواد عينه فرارُه، ولذلك حسبي من وصف هذا الكتاب الإشارة إلى بعض ما فيه مردفًا إيّاه بما يعنّ لي في بابه. قال في صفحة ١٨:

- تدريس الآراء الفطيرة باسم التجديد

«كتاب الأدب الجاهلي الآن والشعر الجاهلي من قبل، ليس إلاَّ مجموعة من الآراء الفطيرة التي خالف بها صاحبها جمهور أهل فنّه ولم تتناولها العقول والأقلام

بالفحص والتمحيص إلاَّ بعد نشرها في صورة كتاب، مع أنَّ الكتب لم تُجعَل في العادة، خصوصًا ما أُعِدّ منها للطلبة المبتدئين، إلاَّ لتضمّ المفروغ من إثباته وتشير من بعيد، إن أشارت، إلى الحدود التي بلغها العلم. ومن الغريب المدهش أنَّ تلك الآراء لم تُنشَر على أهل العلم والأدب في هذا البلد إلاَّ بعد أن كانت أُلقِيت بالفعل على طلبة الجامعة وامتُحنوا فيها. أُلقِيت عليهم باَسم التجديد في الأدب كمَثَل من أمثلة البحث العلمي الحديث. ولسنا نعرف أعرق في الظلم وأبعد عن أصول التربية من هذا النمط في التعليم. ولسنا نعرف أعرق في الرقّ العقلي وأبعد عن التربية الحرّة من أن يتحكَّم شخص هذا التحكُّم في عقول النشء، فلا يعلِّمهم إلاَّ رأيه الخاصّ، ولا ينشِّئهم إلاَّ على مذهبه الخاصّ... إلخ».

فليسمح لي الأستاذ الغمراوي أن أعلِّل له النفسيّة التي ساقت إلى ما نبَّه عليه بما هو في الذروة العليا من الأهمّية:

أولاً، إنَّ الشرق أراد خلع القديم في التعليم وتقليد الغرب فيه.

ثانيًا، إنَّه لم ينضج نضوجًا كافيًا في التقليد فصار يظنّ أنَّ كلّ مخالفة لشيء سابق في الذهن، بخطأ أم بصواب، هي الأسلوب الغربي الذي يجب الأخذ به.

ثالثًا، إنَّ طه حسين لم يُرِد شيئًا سوى المخالفة لرأي الجمهور الذي صار الإجماع عليه حتَّى الآن، وهذا مُعَدّ ليكون مقدِّمة لخرق إجماعات أخرى في علوم أخرى.

رابعًا، عند هؤلاء المتهوِّسين بتقليد الغرب، كلّ رأي جديد فطيرًا أو متخمِّرًا يطلَق عليه اَسم "حقيقة علمية"، مع أنَّ النظريّة الجديدة هي غير الحقيقة العلمية كما لا يخفى. وإنَّ هذه "الحقائق العلمية" في الطبّ والطبيعيّات والعلوم المادّية لا تزال تتجدَّد وينقض آخر منها أول، فما بالك في الأمور الأدبية والتاريخية.

خامسًا، إنَّه بحسب هذه القضيّة الفاسدة يكون رأي طه حسين الذي هو رأي

جديد في الأدب "حقيقة علمية" رأسًا، فلا يحتاج إلى فحص ولا تمحيص.
أَوليس مخالفة ما قرَّره السَّلَف هو "الحقيقة العلمية"؟

سادسًا، إنَّ الهوَس بقبول الجديد بدون فحص ولا تمحيص، ولا سيَّما في مواضيع نحن أدرى بها من متطفِّلة الغربيين، يُعَدّ ضربًا من الحماقة.

سابعًا، إنَّ المسؤول عن تدريس آراء غير ممحَّصة كهذه، في المدارس العائدة للدولة والتي تنشأ فيها أحداث الأمّة، هو نظارة المعارف.

ثامنًا، إنَّ المسؤول عن تهوّر نظارة المعارف هذا هو مجلس الأمّة.

تاسعًا، إنَّ المسؤول عن إهمال المجلس مناقشة نظارة المعارف الحساب على تدريس آراء لم يقُم دليل معقول على صحّتها، هو الأمّة نفسها التي تركت نوَّابها يغضّون على هذا التضليل. فالأمّة هي المسؤولة في هذا التضليل وفي أمثاله، والأمّة هي التي يجب عليها تقويم نوَّابها، والنوَّاب هم الذين يجب عليهم أن يسألوا الحكومة في المجلس، والحكومة هي التي يجب أن تحاسب عن إرخائها العنان لرجل يلقي على النشء آراء سخيفة ويجعلها "حقائق علمية"، ويا للأسف.

- بحران الشرق الاجتماعي

وفي صفحة ٢٠ يقول:

"فالناس يستحسنون في المادّيات الجديد ويفضِّلونه على القديم. فالملْبس الجديد مثلاً والمسْكن الجديد خير عندهم من مثله من القديم وهم يأخذون في ذلك بتجاريبهم. فهم فيه على صواب. لكن إذا نَقَل ناقل القِدَم والجدّة إلى المعنويات، فبدأ يكلّم الناس عن الأدب القديم والأدب الجديد والمدنيّة القديمة والمدنيّة الجديدة، كان الناس منه على خطر وبدأوا يستقبحون ويستحسنون من غير أن يكونوا غالبًا على صواب في الاستقباح والاستحسان: يستحسنون المدنيّة الجديدة ولعلّها شرٌّ من المدنيّة القديمة، ويستقبحون الأدب القديم ولعلَّه خيرٌ من الأدب الجديد. وهم لا يفعلون ذلك لأنهم يرون مدنيّة خيرًا من مدنيّة وأدبًا شرًّا من أدب، لكن لأنَّ الجدّة في ما ألفوا من المحسوسات

مقرونة عندهم بالتفضيل، فيجرون المعنويّات مجرى المادّيات عفوًا من غير قصد، ويقعون طبعًا في نفس الخطأ الذي يقع فيه طالب المنطق حين يستعمل في قياس واحد لفظًا واحدًا مشتركًا بين معنَيَين مختلفَين. والناس معذورون إذا فعلوا هذا، إذ ليس منتظرًا من جمهورهم أن يكونوا مناطقة مدقِّقين أو أن يحذِّروا سوء استغلال قانون الربط أو القران النفسي؛ إنَّما الذي تقع عليه تبعة ذلك الخطأ الخفيّ البالغ هو ذلك الذي يستغلّ أمثال تلك الألفاظ من غير حقّ، وينقلها عمَّا ينطبق جوّها عليه إلى ما لا ينطبق جوّها عليه. وإذا كان هذا الاستغلال منتظرًا أو على الأقلّ لا يمكن منعه في الدعايات الحزبية وحيث تُراعى المصلحة ولا تُراعى الحقيقة، فإنَّ الأبحاث العلمية والأدبية يجب أن تبرأ منه، إذ يجب أن يكون للحقيقة فيها المكان الأول».

قد مسَّ الأستاذ الغمراوي هنا أهمّ موضوع تجول فيه أفكار المفكِّرين ألا وهو موضوع البحران الاجتماعي الذي يتخبَّط الشرق من أوله إلى آخره، والذي كلّ واحد يرى فيه رأيًا. وقد عمَّت فيه الحيرة واشتدَّ الاضطراب وتصادمت الأفكار وتواقفت الميول وتناجزت المشارب، ونظير جميع الأشياء التي تبتدئ أفكارًا فتنتهي أفعالاً وتنزل من الرأس إلى اليد. انتهى هذا البحران من اللسان إلى السنان، ومن القلم إلى الحسام، فسالت الدماء وزُهِقت الأرواح. ولكنَّنا لا نزال في مبدأ البحران ولم نخُض إلاَّ رقارق من الماء. وسيأتي يوم تسيل فيه دماء وتُزهق نفوس أضعاف أضعاف ما جرى إلى الآن، بل ما جرى إلى اليوم سيُعَدّ بجانبها لعبًا ودَدًا.

هذا البحران الاجتماعي أساسه أنَّ الغرب ساد الشرق وغلب على المعمور، ورأى الشرقيون أنفسهم قد أُحيطَ بهم وأصبحوا لا يملكون مع الغربيين أمرًا، فنهضوا يبتغون أسباب الخلاص من سيطرة الغربي، فقالوا: ليس لنا إلاَّ أن نقاتله بسلاحه الذي كان سبب نجاحه. ولمَّا كان سلاحه هو الثقافة الأوربية المبني أكثرها على العلوم الطبيعية والتي أمكنت الغربي من تسخير البخار والكهرباء، قالوا: لا بدَّ لنا من أن نختار لأنفسنا هذه الثقافة، فإذا تحقَّقنا بها صرنا أكفاء للغربيين ورفعنا سلطتهم عنّا. وإلى هنا كان الخلاف يسيرًا وكان الجامدون على القديم قد يذعنون للقواعد القديمة

التي منها أنَّ الضرر لا يكون قديمًا، والتي منها أنَّ الحكمة ضالَّة المؤمن يلتقطها أنى وجدها وأيّان وجدها، والتي منها الأمر بالسير والنظر وتدبُّر أسرار الكون والاكتراث لأمر الدنيا كما لأمر الدين، وغير ذلك ممَّا ليس لجامد معه أدنى مجال للمكابرة. ولكنَّ الذي اصطدمت فيه الأفكار واصطكَّت الآراء ولمعت من اصطكاكه بوارق الشرّ، التي لا تزال مع ذلك في مباديها، هو: هل يجب أن نأخذ هذه الثقافة بحذافيرها ونقبلها على علاّتها ونتلبَّس بها في طويلها وقصيرها وأحمرها وأسودها، وأن نتلقَّى هذه النظريّات كلّها من مادّي ومعنوي بدون استثناء ونتلقّاها قضايا مسلَّمة لا يجوز لنا النزاع فيها أو الاعتراض على شيء منها، أم يجب علينا أخذ النافع وترك الضارّ وتلقِّي العلوم المادّية الباحثة في المواد الصامتة بدون تجاوز ذلك إلى المنازع الروحية وإلى مصدر إدارة الكون؟ وبعبارة أخرى، هل ينبغي لنا أن نأخذ عن الأوربيين كلّ مادي وأدبي وطبيعي وروحي وصوري ومعنوي؟ أم يجب أن نقتصر على البحث واختيار الأنفع والأجدر بأن يصيبنا من تركه ضرر، وأن نحافظ على ثقافتنا الشرقية القديمة التي هي من مقوِّمات وجودنا ومشخَّصات استقلالنا، وعلى عقائدنا وآرائنا في الأمور الاجتماعية والأدب واللغة والكتابة والغناء وطرز البناء واللباس والفراش وما أشبه ذلك؛ فهذه كلّها مواضيع أصبحت ميادين جدال وستنقلب ميادين جلاّد، وكانت معتركات عقول فستصير معتركات أبدان.

فبعض الشرقيين ذهب إلى أنَّ الثقافة الغربية يجب أخذ الشرقيين لها بحذافيرها وعلى علاّتها وعلى جميع مستتبعاتها وبدون جدال فيها. وقال التركي أحمد أغايف: إنَّ المدنيّة الأوربية كلّ لا جزء، وإنّها أشبه بالجوهر الفرد الذي لا يتجزّأ بعضه عن بعض. أي إذا وجب علينا أن نأخذ بقول سبنسر في مسئلة اجتماعية أو داروين في مسئلة كونية أو باستور في مسئلة ميكروبية، وجب علينا في الوقت نفسه أن نلبس زيّ هؤلاء العلماء ونأكل مثل طعامهم ونتلذَّذ بمثل ما يتلذَّذون به من الموسيقى ونقيم بمساكن أشبه بمساكنهم من جهة هندسة البناء ونذهب مذاهبهم لا في العلوم الطبيعية فحسب، بل في العلوم الأدبية والفنون الجميلة وفي الأدب والشعر وأسلوب الكتابة.

ولعلَّ للغلاة في هذا المشرب مأربًا سياسيًّا خاصًّا ليس هنا مكان شرحه؛ إذ إنَّ بعض أمم الشرق الأدنى كانت حتَّى اليوم مطبوعة بطابع المدنيّة العربية، وكانت تصيب من وراء ذلك جاهًا وعزًّا وبسطة في الملك. فلمَّا تحوَّلت الأحوال وصارت الكلمة العليا للأوربيين، رأى بعض رجالها أن تطبع نفسها بطابع أوربي بَحْت تزلُّفًا للأمم الغالبة واندماجًا في غمارها وتفصِّيًا من الأمّة العربية التي هي في الواقع أجنبية عنها. ولم تدخل في دينها ومدنيّتها إلاَّ من ألف سنة حبًّا بالملك والسلطان اللذين كانا مقرونَين يومئذٍ بدين العرب وحضارة العرب، فلمَّا زال السبب اقتضى أن يزول المسبِّب. وعلى كلّ حال، لم تخسر الأمّة التي تريد أن تجحد ماضيها العربي شيئًا من عندها، بل هي كانت متلبِّسة بثوب عارية فتريد الآن أن تخلعه وتلبس ثوب عارية آخر. فهي من مستعار إلى مستعار، تستعير بحسب أحوال الزمن.

ولعلَّ أصحاب هذا الرأي من تلك الأمّة مخطئون في غلوِّهم ولكنَّنا نتركهم وشأنهم ينتصف بعضهم من بعض، وسيرى الناس كيف تكون العاقبة، والحكم للنتيجة لا للمقدِّمات.

ولكنَّنا نخاطب الأمّة العربية التي هي وحدها عالم كبير يملك جميع مقوِّمات الأمم الكبرى، فنقول لها:

ليست العلوم والمعارف في الدنيا شرقية ولا غربية، بل هي سلسلة واحدة يَلِد بعضها بعضًا: فشرقي أصله غربي وغربي أصله شرقي، وهَلُمَّ جرًّا. فكلمة "العلوم الأوروبية" اصطلاح عامّي في الحقيقة، فإنَّ العلم لا وطن له.

لنفرض أنَّ هذه العلوم المسمّاة "أوربية" هي وضع الأوربيين وحدهم، فليس ذلك بسبب أن نتحوَّل إلى أوربيين وأن ننكر أصلنا ونجحد قوميّتنا من أجلها، لأننا نقدر أن نتعلَّم هذه العلوم ونطبِّقها بالعمل ونحن باقون على عربيّتنا. فاليابانيون هؤلاء قد نقلوا جميع هذه العلوم إلى بلادهم وضارعوا فيها الأوربيين بالتمام والكمال، ولم يزالوا يابانيين في كلّ شيء. وكذلك الإفرنج أنفسهم، نقلوا علوم

الشرق من قبل إلى بلادهم وأبوا أن يكونوا شرقيين. وهم إلى يوم الناس هذا، مع رقيّهم في العلوم الطبيعية والرياضية الصحيحة، يأبون أن يتحوَّلوا عن عاداتهم ومشاربهم وتقاليدهم وعقائدهم التي منها ما لا ينطبق على هذه العلوم. وإنَّ من أرقى أممهم في الحضارة والمعارف المادّية الأمّة الإنكليزية، هذا لا يختلف فيه اثنان، ولها من السيادة على المعمور ما لا يدانيها فيه أمّة أخرى، وهي أشدّ الأمم استمساكًا بدينها وتقاليدها وتذكُّرًا لماضيها ونزوعًا إلى المشرب الروحي.

لنقُل إنَّ الأوربيين هم أبحر للعلوم منّا وأطلع على خزائن الغَيب، وإنَّ معارفهم هي التي كسبت لهم هذه البسطة وهذه السلطة، فلا يوجِب ذلك أن نأخذ معارفهم بدون جدال لأنَّ هذا خلاف شرط التمحيص الذي تعدُّه المدنيّة الأوربية من مزاياها، ولأنَّ المحقِّقين من الأوربيين أنفسهم لا يدَّعون أنهم على حقّ في كلّ شيء وأنهم وضعوا الحقائق في جيوبهم وجفَّ القلم.

لنقل إنَّ معارفهم من حيث المجموع هي أرقى من معارف الشرقيين، فليس يعني ذلك أنهم صاروا أبحر منّا في العلوم الخاصّة بلغتنا وآدابنا، وأنَّ قولهم في الأدب العربي صار ينبغي أن يكون فصلاً. وأنه من حيث كان الذي كشف أشعّة رونتجن أوربيًّا وجب أن يكون الأوربي أدرى من العربي بشعر الجاهليّة، وأنه إذا خلط منهم خالط في هذا الموضوع لزم أن نحترم خلطه ونحتشم ضلاله. فالعلم ليس ملكًا لأوربي ولا لعربي، إنَّما هو مشاع أولى الناس بأن يحكم فيه المتخصِّص به من أيّ قوم كان. فنحن أدرى بلغتنا وبأدبنا وبشعرنا من الأوربيين، وبالتالي أصحَّ حكمًا على هذه الأشياء منهم.

ليس الشرقي مرادفًا لقديم ولا الغربي مرادفًا لجديد، بل عند الغربيين عقائد وعادات وأطوار وأوضاع قديمة قد تكون أقدم من أندادها عند الشرقيين. فمن أكبر الأغلاط تلقّي كلّ قول أوربي جديدًا وتنزيله منزلة اختراع صناعي أو كشف علمي. ليس كلّ شيء قديم منبوذًا وليس كلّ شيء جديد ـ برغم أنَّ كلّ جديد له

طلاوة ـ مرغوبًا فيه، بل ينبغي أن يُنظر في العلم إلى الأصحّ، وفي العمل إلى الأصلح، بدون ملاحظة أنَّ هذا جديد وذاك قديم.

إن كان كلّ قديم يجب نبذه والعدول عنه إلى جديد، فلا يكاد يوجد شيء أقدم من الخبز الذي لا يزال الخلق مُجمعين على اتِّخاذه قوتًا في كلّ مكان وُجِدَ فيه القمح. ولو مضت مائة ألف سنة، لما كان العسل إلاَّ عسلاً بطعمه وخواصه كما كان منذ مائة ألف سنة قبل اليوم. إنَّ هذه أمور مرتبطة بالذوق الإنساني ومقتضى الفطرة البشرية، فما دام الإنسان هو الإنسان فهناك بالنسبة إليه أشياء ليس فيها قديم وحديث.

الأدب قضيّة ذوق معنوي عائد إلى طباع كلّ أمّة ومشاربها. وممَّا لا جدال فيه أنَّ الأدب قابل للتجدُّد، وأنه يتأثَّر بكلّ مؤثِّر جديد، وأنه يتلوَّن بلون الزمان والمكان. وأنَّ الأدب العربي نفسه دخل في أطوار مختلفة من الأزمنة والأمكنة التي وُجِدَ فيها، ولكن هناك مسائل عائدة إلى ذوق الإنسان العربي الكامل وإلى أسلوب اللغة العربية الأصلي. فهذه مسائل ليس فيها قديم وحديث، بل فيها غثّ وسمين وبارد ومستكره؛ والأمور الذوقية لا تعرَّف، بل من ذاق عرف.

إن كان العصر الحالي فاق العصر الماضي في الطبيعيّات والكيمياء وجرّ الأثقال، فلا يستلزم ذلك أن يكون فاقَهُ في الشعر والإبانة عن عواطف النفس. وإنَّ العبقرية لنشيدةُ الأقوام بدون نظر إلى زمان أصحابها. أَفيوجد في الإنكليز اليوم من له مكانة شكسبير في الشعر أو في الألمان من له مكانة غوته؟ وليس واحد منهما من أهل العصر الحالي. كذلك الجاحظ وابن المقفَّع وبديع الزمان أمثلة إنشاء للعرب، وأبو نوّاس وبشّار وأبو تمّام أقْيِسة قريض لهم، سواء أكان العرب الأولون أم المحدثون، لا يضرّ بفصاحتهم أنهم عاشوا في الزمن السالف. فالمسئلة مسئلة خيال وشعور وملَكة إبانة عنهما، وهذا ليس في شيء من الكيمياء ولا من الميكانيكيّات. فلا ينبغي خلط العلم مع الأدب، ولا الصناعة وجرّ الأثقال مع الفصاحة. وإنَّ إقحام لفظتَي قديم وجديد هنا هو استغلال ألفاظ بغير حقّ، كما يقول الأستاذ الغمراوي، بل هو تضليل وقلب لحقائق الأشياء وأقيسة فاسدة ليست نتائجها عن مقدِّمات صحيحة.

- مادّة «الأدب» في الكلام العربي

وقد أشار الأستاذ الغمراوي في صحيفة ٢٢ من كتابه إلى التعسُّف الذي تعسَّفه طه حسين في بحث «الأدب» واشتقاق هذه الكلمة، وكيف أنكر أن تكون عُرِفت في عصر الجاهليّة أو زمن البعثة، وأورد الشبهة على أن يكون الحديث النبوي «أدَّبني ربِّي فأحسن تأديبي» صحيحًا بلفظه، وكيف مضى في تعليلاته كلّها على أنه «ليس ما يمنع»، وأخذ يبني عليها أحكامًا طويلة عريضة. فقال الأستاذ الغمراوي إنَّ «ليس ما يمنع» هذه لا تفيد الجزم والقطع، وإنَّما هي تقال في باب الاحتمال. ثمَّ استطلفت جدًّا قوله:

«على أنه إذا كانت المسئلة مسئلة يجوز وليس ما يمنع، فليس ما يمنع أن تكون النصوص التي وردت فيها هذه الكلمة عن الجاهليّة صحيحة، ويجوز أن يكون الحديث الشريف الذي أشار إليه قد صحّ عن النبي بلفظه».

وأنا أقول إنَّه عدا حديث «أدَّبني ربِّي فأحسن تأديبي»، توجد أحاديث كثيرة من زمن البعثة فيها هذا الحرف، كقول عليّ (كرَّم الله وجهه): «أمَّا إخواننا بنو أميّة فقادةٌ أدَبة»، جمع آدِب، وهو الذي يدعو الناس. وقول ابن مسعود: «إنَّ هذا القرآن مأدبة الله في الأرض»، أي مدعاة الله في الأرض؛ كِلا الحديثَين استشهد بهما لسان العرب. ولعلّي، إذا انتدح لي الوقت، أجد أحاديث أخرى من ذلك العهد فيها هذا الحرف. فإن قيل إنَّه لا يمكن الجزم بصحّة تلك الأحاديث، ولو جاءت منعنعة عن ثقات الرواة، قلنا هكذا لا يبقى تاريخ ولا يعود إمكان للبحث. وما أحلى قول الغمراوي:

«وعلى أنَّ أسبقيّة هذه الكلمة على العصر الأموي أرجح جدًّا من التجويز والاحتمال، فقد رُويت نصوص كثيرة عن الجاهليّة وفجر الإسلام، كلٌّ منها يحوي مادّة أدب في صورة من صورها، وعلماء اللغة قد قالوا بصحّة تلك النصوص، ونبذ ما صحَّحوه من غير ما قرينة، ولا داعٍ شطط وإسراف تضيع معه الحقائق ولا ينمو به الأدب».

وفي صفحة ١٠٠، يبسط الأستاذ الغمراوي مذهب الدكتور طه حسين في الشكّ: هذا الشكّ الذي هام الدكتور بحبِّه حتَّى انتهى إلى أن اتَّخذه قانونًا للترجيح والتجريح، فيقول: إنَّ ما ادَّعاه طه حسين لنفسه من أنَّ الشعر الجاهلي موضوع جُلَّه إن لم يكن كلّه، هو دعوى مرجليوث لا دعوى طه حسين في الحقيقة.

يقول: وقد سمَّاها طه حسين نظريّة، وأعلنها في الكتاب أول مرّة في صفحة ٦٤، وأعلن الفراغ من إثباتها في صفحة ١١٧؛ إذ يقول: «ولكنَّنا محتاجون بعد أن ثبتت لنا هذه النظريّة أن نتبيَّن الأسباب المختلفة»... إلخ.

قلت إنِّي لا ألوم الدكتور طه حسين الذي قصاراه أن يسرق رأيًا لمستشرق أوربي خالف فيه جمهور المستشرقين، فضلاً عن علماء العرب، وأن ينتحل هذا الرأي لنفسه متبجِّحًا به. كما ألوم نظارة المعارف المصرية التي تركت ناشئة الأمّة، التي آمنتها على أحداثها، ألعوبة في أيدي مضلِّلين يحسبون مجرّد الشكّ يقينًا ويبنون عليه أقيسة، ويلعبون بالحقائق التاريخية التي أقرَّها جمهور الشرقيين والغربيين، وينقضونها بدون أدنى دليل يصحّ الاعتماد عليه ليقيموا مكانها أوهامًا في أوهام وأقاويل أشبه بأضغاث أحلام، ويلقِّنونها نشء هذه الأمّة على أنها حقائق علمية!! إنَّ عملاً كهذا لو وقع في بلاد أوربية لسقطت من أجله الوزارة بأجمعها، لا نظارة المعارف وحدها. ولكنَّ الشرق أصبح في فوضى حقيقية من جهة التعليم لأنه زعم أنه يريد نبذ أسلوب التعليم القديم والعمل على الأسلوب الجديد، فنسي القديم ولم يدرك الجديد، ووقفت الأمّة حيرى لا تعلم ممَّن تطلب الحساب.

وأعود إلى كلام الأستاذ الغمراوي، فهو يقول إنَّه قبل النظر في نظريّة طه حسين هذه وأدلّتها، وقبل المقارنة بين طريقة الدكتور في إثباتها وطريقة العلم في تمحيص النظريّات، لا بدَّ من عمل مقارنة أخرى أهمّ من هذه المقارنة ومن تمحيص أمر آخر أهمّ من هذه النظريّة، وهذا الأمر هو موقف صاحب الكتاب تلقاء القديم، وهذه

المقارنة هي المقارنة بين موقفه هذا وما يبرِّره العلم الحديث. فاللغة العربية لو صدّقت نظريّة الدكتور لن تُرزأ بأكثر من تضييع نَسَب الشعر الجاهلي، فيصبح مجهولاً نسبه بعد أن كان يُنسَب إلى شعراء معروفين. أمَّا الشعر ذاته، فإنَّ اللغة لن تفقده لأنه في رأي الدكتور «إنَّما هو انتحال الرواة أو اختلاق الأعراب أو صنعة النحّاة أو تكلُّف القُصّاص أو اختراع المفسِّرين والمحدِّثين والمتكلِّمين».

أقول: هذا هو المحال بعينه. فإنَّه لا يأتي أحد في الدنيا عملاً بدون غاية يقصد إليها. وإلى الآن، يتعذَّر علينا أن نفهم المقصد الذي لأجله تكلَّف حمّاد والأصمعي خلق مئات ألوف من أبيات الشعر وعزوها إلى الشنفري والأعشى وامرئ القيس وغيرهم، وخلق الحوادث التي قيلت فيها وإقناع هذا الشعب العربي الكبير الذي يُحصى بالملايين والذي صنعته الأخبار والروايات لا شغل له أهمّ منها بالتواطؤ معهم على ما خلقوه! فما فهمنا مقصد الرواة في تسيير هذا الشعر المخلوق أولاً، ولا السبب في تواطؤ هذه الأمّة العظيمة ـ مع شهرتها بحرّية الفكر ـ على هذا الكذب البارد ثانيًا. ثمَّ لم نفهم لماذا بعض «الأعراب» يختلق شعرًا فينسبه إلى غيره؟ أفليس الأجدر به أن ينسبه إلى نفسه ويفتخر به، لا سيَّما أنَّ الشعر كان من أعظم مفاخر العرب؟! ولقد سمعنا أنَّ بعض الناس كانوا يدَّعون شعر غيرهم من شدّة بأو هذه الأمّة بالشعر، وأنه كثيرًا ما وُجِد لصوص أدب يشنّون الغارة على أقوال الناس ويزعمون أنهم هم قالوها. فأمَّا أن يقول أعرابي من البادية معلَّقة كقفا نبك مثلاً، ثمَّ إنَّه بدلاً من أن ينشدها على أنها لنفسه وينال بها الصيت البعيد، يذهب ويقول إنها لامرئ القيس. فهذا ممَّا تقاصرت أفهامنا عن درك سرّه... وأمَّا النحّاة الذين جرَّدوا القواعد النحوية من الشعر والكلام الذي حفظوه من كلام الجاهليّة، فلمَّا وجدوا أنَّ كلّ ما كان فاعلاً يجيء مرفوعًا، وكلّ ما كان مفعولاً يجيء منصوبًا، وأنَّ الاَسم بعد كان مرفوع وأنه بعد إنَّ منصوب وهَلُمَّ جرًّا، قرّروا هذه الأمور على أنها قواعد كلّية وأنَّ ما خالفها هو شاذّ. ولم يكن لهم إرب خاصّ ولا غرض معيّن في أن يكون هذا مرفوعًا وذاك منصوبًا وذلك مجرورًا، بل إنَّما قالوا به لأنه

هكذا جاء عن العرب. ولو نطق العرب بالفاعل مجرورًا لقال النحّاة بجرّه، إذ ليس لهم أدنى جرّ مغنم من رفعه. فلماذا ـ يا ليت شعري ـ يذهبون ويرتكبون إثم الأفك ويخلقون شعرًا من عند أنفسهم وينسبونه إلى زيد وعمر من الجاهليّة ليؤيّدوا به أنَّ الفاعل مرفوع، وأنَّ الباء حرف جرّ، وأنَّ الواو عاطفة، وما أشبه ذلك. أفيا ترى لو كان الفاعل هو المنصوب والمفعول هو المرفوع، وجاءت من شعر الجاهليّة شواهد تؤيِّد ذلك، أكان ذلك يرزأ هؤلاء النحّاة في رزقهم أو دينهم أو حسبهم أو يثلم من شرفهم ويغضّ من قدرهم! ثمَّ لو كان هناك نحويٌّ واحد أو نحويّان أو ثلاثة لَهان الخطب وسهل التشدُّق بهذا المحال، ولكنَّهم مئات وألوف؛ وإذا نظرت إلى العالم العربي يومئذٍ، فَقُلْ عشرات ألوف. أفكلّ هؤلاء تواطأوا على الكذب، وأنشدوا أشعارًا يؤيِّدون بها قواعد نحوهم، وعزوها إلى الجاهليّة وهي ليست من الجاهليّة. ثمَّ إنَّ هذه القواعد ليست في الحقيقة قواعد نحوهم، بل هي قواعد كلام العرب والمناهج التي تمشّى عليها هذا الكلام منذ وُجِدَت لغة مضر، فما ضرَّهم هم لو كان كلام العرب على نحو آخر. فما أسهل الفرض والتقدير على طه حسين، وما أهون الكذب والاختلاق في نظره، وما أفرغ ضمائر الخلق في حسبانه. إنْ هي إلاَّ كلمات يلوكها فمه ويجري بها قلمه، وهو يظنّ تحقُّقها هيّنًا وليس شيء من ذلك بهيّن ولا بداخل في العقل. إنَّ الناس حدَّثوا عن رجل كان يُجيب على كلّ سؤال يُلقى عليه حتَّى لا يقرّ بالعجز وكان سيّال القريحة، فقلَّما بادهه أحد بسؤال إلاَّ بادر بالجواب وأورد شواهد. وكان أصحابه قد عرفوا هذا الخلق فيه، فأرادوا لأجل الفكاهة أن يسألوه عن لفظ لا معنى له ليروا كيف يجيب، فاجتمعوا واقترحوا أن يقول كلّ منهم حرفًا، ثمّ يجمّعوا الحروف ويركِّبوا منها اللفظة التي يريدون السؤال عنها. ففعلوا ذلك، فإذا باللفظة التي تركَّبت من تلك الحروف هي "الخنفشار"، وهي لفظة لا معنى لها في اللغة. فجاءوا إلى شيخهم وسألوه عن "الخنفشار"، فبادر بجوابهم أنه نبات ينبت بأطراف اليمن وأنَّ من خصائصه أن يجذب الحليب. قال شاعرهم:

لقد جذبت محبّتكم فؤادي كما جذب الحليبَ الخنفشارُ

ثمَّ قال: ذكر داود الإنطاكي في تذكرته كذا وكذا، وذكر فلان عن الخنفشار كذا، وأراد أن يأتي بحديث نبوي. فعند ذلك ضحك القوم، وقالوا له: كذبت على الشاعر وعلى داود الإنطاكي وعلى فلان وفلان، فلا تكذب على رسول الله. وكيف كان أصل هذه القصّة، فممَّا لا مريّة فيه أنَّ لفظة واحدة مخلوقة هي «الخنفشار» قد طبق خبرها الآفاق وصارت مثلاً مضروبًا وصارت ذات معنى في ذاتها يدلّ على التلفيق، وصارت قصّة ذلك الشيخ الذي أحبّ أن يخلق شاهدًا من قريحته أشهر قصّة حفظها الأدباء من قرون ولم يبقَ أحد تقريبًا لم يسمع بحديث الخنفشار. أفيرى طه حسين بعد ذلك أنه من السهل أن تكون شواهد اللغة كلّها خنفشارية، وأنه ليس ما يمنع أن تكون هذه الشواهد كلّها أو جُلّها من وضع النحّاة! ونحن نجاوبه: يمنع ذلك العقل السليم والمنطق والعادة والوجدان الصحيح والكتب الموجودة والأدب المأثور والروايات المصحّحة والتواتر، ويمنع ذلك ما لو فسد لم يصحّ علم في الدنيا. وأغرب من هذا قوله إنَّ الشعر الجاهلي هو «من اختراع المفسِّرين والمحدِّثين والمتكلِّمين»!! وأول دليل على فساد هذا الزعم أنَّ هؤلاء المفسِّرين والمحدِّثين والمتكلِّمين لم يكونوا بشعراء، وإن وجد منهم مَن قرض الشعر فيكون نادرًا، والنادر لا حكم له. ثمَّ إنَّ كانوا قالوا شيئًا من الشعر، فقد كان أسلوبهم فيه أسلوب علماء لا يخفى على الناقد البصير، وهذا بعيد عن مذاهب الشعراء. وأذكر هنا النكتة التي رواها ابن خلدون في مقدِّمته عن لسان الدين بن الخطيب حين أنشده منشد:

لم أدرِ حين وقفتُ بالأطلال ... ما الفرق بين جديدها والبالي

فقال له: هذا شعر فقيه لقوله «ما الفرق»، فإنَّ الشعراء لا يعرفون هذا الأسلوب. وبالاختصار، إنَّ المحدِّثين والمفسِّرين والمتكلِّمين إن وُجِدَ منهم من قال الشعر، فإنَّما يكون على أساليب العلماء المعهودة لا على أساليب الشعراء، لا سيَّما شعراء الجاهليّة. هذه قضيّة لا يقدر أن يسفسط فيها لا طه حسين ولا مرغليوث ولا غيرهما، إلاَّ إذا جاز تعاطي المحال وصار يؤخذ به في الجدل، فعند ذلك كلّ قول جائز...

وليقُل لنا طه حسين: مَن مِن أولئك المحدِّثين، كان يتعمَّد تزوير الشعر على ألسن شعراء الجاهليّة؟ أَفكان البخاري ومسلم والترمذي وابن ماجه وأحمد بن حنبل والشافعي ومالك والمزني والدار قطني وابن تيميّة، وهذه الطبقات بمكانهم من الصدق والورع والتحرّي إلى الدرجة التي لم تعهد في أمّة من الأمم، هم الذين يضعون تلك الأشعار الجاهليّة وهاتيك القصائد على ما فيها من غزل وتشبيب وطروق نساء في الليالي...إلخ. وهم الذين كان الواحد منهم إذا أراد أن يتلو حديثًا، قام فصلَّى ركعتَين وتوسَّل إلى الله تعالى أن يلهمه الصواب حتَّى لا يأتي بحرف زائد أو ناقص. ثمَّ ماذا كان مقصدهم من وضع هذا الشعر؟ أَفكان درسًا في العفّة أن يخلقوا مثل:

فمثلك حبلى قد طرقت ومرضع ... فألهيتها عن ذي تمائم محول

إذا ما بكى من خلفها انصرفت له ... بشقّ وتحتي شقّها لم تحوّل

أم كان درسًا في التوحيد أن يضعوا للناس مثل:

حياة ثمَّ موت ثمَّ حشر ... حديث خرافة يا أمّ عمرو

أم كان تزهيدًا في شرب الخمرة وضعهم:

ألا هبي بصحنك فأصبحينا ... ولا تبقي خمور الأندرينا

ووضعهم الآخر:

وإذا سكرت فإنَّني مستهلك ... مالي وعرضي وافر لم يكلم

أم كان غرامهم أن يشيدوا دين النصرانيّة حينما نظموا على لسان النابغة في مديح بني غسّان: "يحيون بالريحان يوم السباسب"، أي يوم الشعانين.

وحين قالوا عنه:

محلتهم ذات الإله ودينهم ... قويم فما يرجون خير العواقب

إلى غير ذلك ممّا لو استقصى لم تسَعه الأوراق ولم تضمّه الأجلاد.

ومن هم يا طه حسين أولئك المفسِّرون الذين زوَّروا هذه القصائد على الجاهليّة؟ إنَّ المفسِّرين عددهم محصور تقريبًا وأشهرهم الطبري والرازي والزمخشري والبيضاوي وابن برجان، ومن عدا هؤلاء فلا يبلغون مكانتهم في هذه الشهرة. أَفأحد في الدنيا يقول إنَّ ابن جرير الطبري كان عنده من الوقت مع تآليفه التي كانت تفني الأعمار دون قراءتها، وحلقات دروسه المتَّصلة التي كان يقصدها الناس من الآفاق بحيث إنَّه كان يصنع القصائد على ألسن الجاهليّة؟! وهل القاضي البيضاوي هو الذي قعد يزوِّر للناس أشعارًا على لسان النابغة الجعدي وأعشى باهله؟

وما الذي حداهم إلى ذلك؟ أَفكان هذا الشعر الذي زوَّروه في معنى آي الكتاب الذي فسَّروه؟!

ثمَّ وصلت أيضًا يا طه حسين إلى المتكلِّمين وأدخلتهم في مؤامرة التزوير هذه، فآتنا ولو بشاهد واحد على صدق دعواك وقُلْ لنا أيّ بيت قيل إنَّه نَظَمه أبو الحسن الأشعري أو أبو منصور الماتريدي أو إمام الحرمين أو شمس الإسلام الجويني أو الإمام الغزالي أو أبو بكر الباقلاني أو النسفي أو غيرهم من المتكلِّمين عن لسان أحد من شعراء الجاهليّة، أو اشتُبه في أنه له دون الجاهلي الذي نسب إليه. وقُلْ لنا ما غاية ذلك الإمام المتكلِّم من تلك الكذبة، واشرح لنا عمَّا في هذا الكلام المختلَق من زيادة الاستدلال على وجود الله أو على صحّة الإسلام؟ إنَّ هؤلاء المتكلِّمين هم مناطقة قضوا أعمارهم في التعليل والقياس، فلا يُعقل أنهم يأتون عملاً أو يقولون قولاً بلا سبب.

سهل عليك وعلى أمثالك إلقاء الكلام على عواهنه، وأن تقول «إنَّ القدماء لم ينسوا في البحث قوميّتهم ودينهم وما يتَّصل بهما، فاضطرّوا إلى المحاباة وإرضاء العواطف، فغلوا عقولهم بما يلائم هذه القوميّة وهذا الدين».

ولكن ليس بسهل عليك ولا على أمثالك أن تثبتوا كيف جروا في هذه المحاباة وفي إرضاء هذه العواطف، ولا تقدرون أن تأتوا بشاهد واحد على هذا، وقصارى ما تأتون به «خيال»، والخيال يبقى خيالاً، و«افتراضٌ»، والافتراض لا يكون حقيقة

مجزومًا بها، لا سيَّما إذا كان بعيدًا منبوذًا. فالقدماء أحبّوا دينهم وقوميّتهم وما من أمّة من الأمم إلاَّ وقد أحبّت دينها وقوميّتها، والإفرنج المعاصرون بالإجمال محبّون لدينهم وقوميّتهم؛ وإن وُجِدَ منهم من هو غير متمسِّك بدينه، فهو تحت تأثير نشأته الدينية والقوميّة. وكلّ من هذه الفئات تدافع عن دينها أو عن قوميّتها، وتجتهد أن تثبت كونها أهدى سبيلاً من غيرها. ولكنَّ الكذب والاختراع لأجل إثبات الحقّ هما بئس العمل لإثباته باتِّفاق الأوّلين والآخرين. وإنَّ إخفاء الحقائق، لا سيَّما في الأمور التي تناولتها أمم بحذافيرها وشعوب بقضِّها وقضيضها، ليس من السهولة في المكان الذي يقع في خيالك وخيال مرغليوث. وإنَّ الحبّ الذي يشعر به الإنسان لدينه أو لقوميّته، سواء أفي قديم أو في حديث، لا يحمله على ترك وجدانه وتصيير نفسه كذّابًا وضّاعًا مفتريًا مختلقًا، وهو يعلم أنَّ كلّ كذب فمصيره إلى الفضيحة، وأنه مع ذلك من عقيدته في كفاية تغنيه عن ارتكاب السرقة.

على أننا لو سلَّمنا جدلاً بأنَّ القدماء لغرامهم بدينهم أو قوميّتهم أرادوا أن يعزِّزوهما بشواهد جديدة، فلم نفهم حتَّى هذه الساعة ما الذي في شعر الجاهليّة ممَّا يعزِّز الإسلام ويزيد في إيضاح براهينه حتَّى يقوم المحدثون والمفسِّرون المتكلِّمون بارتكاب كبيرة التزوير ويقولوا عن ألسن الجاهليين شعرًا مخلوقًا لا حاجة بهم إليه، فيكونوا كمَن شهد الزور عفوًا بلا طلب أو سرق على غير حاجة. وهذا أمر إن لم يردَّه الدين والخلق ردَّه المنطق والعقل.

- محاولة إلغاء جهود ثلاثة عشر قرنًا ببضعة أسطر

ومن جليل الملاحظات التي أبداها الأستاذ الغمراوي في كتابه، ما يأتي:

(لكنَّ مذهب الأستاذ في ما يسمِّيه بالقديم، أي في ما أجمع عليه أهل العلم باللغة إلى ظهور الكتاب، يسلب اللغة أدبها كلّه ويسلب أهل اللغة كلّ تاريخ لغتهم وشيئًا كثيرًا جدًّا من تاريخهم. إنَّه يذهب إلى "أن نضع علم المتقدِّمين كلّه موضع البحث" [كما أورد صاحب الكتاب ص ٦٠]، وكأنَّ هذا لم يكفِه، فعقَّب عليه بقوله "لقد

أُنسيت، فلست أريد أن أقول البحث وإنَّما أريد أن أقول الشكّ». وما نضع موضع الشكّ، فلن نبني عليه طبعًا ولن نستشهد أو ننتفع به بحال. فهو مبدأ يطوي ماضي اللغة كلّها طيًّا، ويضرب على علم المتقدِّمين كلّه طلسمًا من الشكّ يحول دون انتفاع الناس به. ولا بدَّ للناس بعد ذلك من أن يصبروا على غير لغة أو أدب أو تاريخ حتَّى يقوم المذهب الجديد، مذهب طه حسين، فيكشف لهم أدبًا وتاريخًا جديدَين ويبتني للّغة نظامًا جديدًا يحلّ محلّ هذه الفوضى الجديدة التي يريدون إدخالها بهذا المبدأ على اللغة، والتي إذا أباها الناس كانوا في رأي الدكتور لا يعرفون للعلم حقّه... إلخ). إلى أن يقول الأستاذ الغمراوي: «فهذا المبدأ الذي وضعه صاحب الكتاب في مقدِّمة كتابه تمهيدًا لبحثه هو لا شكّ أهمّ وأشدّ خطرًا من نظريّة الكتاب، بل هي بجانبه لا تبدو إلاَّ ضئيلة تافهة. ومع ذلك، لم يرَه صاحب الكتاب جديرًا إلاَّ ببعض صفحات يخصّها له من كتابه، كأنَّ العلم الذي ذكر هذا المبدأ باَسمه لا يحتِّم على الأستاذ إثبات صحّته أو على الأقلّ تبريره قبل الأخذ به، أو كأنَّ تبرير مبدأ كهذا يلغي جهود ثلاثة عشر قرنًا يمكن أن يقوم به كاتب في بضعة أسطر أو صفحات من كتاب. إنَّ العلم الذي يكتب الدكتور باَسمه لا يمكن أن يكون بعض مبادئه معطِّلاً لبعض؛ فهو لا يمكن أن يقرّ مبدأ يسمح لشخص ما، ولو كان أستاذًا في جامعة، أن يهدم أو يعطّل في دقائق ما بنَته الأجيال في طوال القرون». إلى أن يقول الأستاذ الغمراوي، ولله درّه: «العلم كما يتحرّز كلّ التحرّز في البناء يتحرّز كلّ التحرّز في الهدم، وكما يبني يحافظ على ما يُبنى، وكما يصون جهود الحاضر والمقبل من الأجيال أن تضيع في أبحاث لا طائل تحتها، يصون جهود الماضي منها أن تضيع بشكّ جِزاف لا مبرِّر له... إلخ».

لقد جمع الأستاذ الغمراوي، فأوعى في هذه الجمل القليلة التي هي مثال من أمثلة البلاغة. وأضيف إلى ذلك أنَّ الشكّ لا يكون علمًا، لأنَّ الشكّ أشبه بالهدم والعلم موجود، فلا يكون الشيء معدومًا وموجودًا في وقت واحد.

وأقول أيضًا: إنَّ الأوربيين الذين اخترنا النسج على منوالهم في العلم والثقافة، لم يهدموا ماضيهم ولا نسفوا ما رفعته القرون الخالية. وهذه الثقافة اليونانية واللاتينية

لا تزال لعقولهم نبراسًا ولآدابهم أساسًا. والتجديد في الأدب وفي كلّ شيء ليس معناه هدم كلّ بناء قديم لأنه قديم، بل هو هدم كلّ ما تحقّق أنه مختلّ الأساس لأنه مختلّ ولأنَّ الإقامة به خطر. فأمّا إذا كان الأساس متينًا والبناء متراصًا متلائمًا والإقامة بالبناء أو بجانبه لا تدعو إلى الحذر ولا تؤذن بالخطر، فيكون تعمُّد هدمه ضربًا من الجنون. أَفخطر ببال أحد أن يهدم الأهرام لأنَّ الأهرام بنية قديمة زائدة العتق، وأن يتبدَّل بها بنية جديدة على الطرز الأحدث؟! كلاَّ! بل الناس يحرصون على الأهرام ويعدّونها من مفاخر القرون السوالف، ويجعلونها عبرة وذكرى، ويتّخذون من شكلها مثالاً هندسيًّا منسوبًا إليها. ثمَّ إنَّ هذا الجديد هو حلقة من سلسلة، وسيأتي يوم يعود فيه قديمًا ويأتي جديد بدلاً منه.

إنَّ هذا القديم كان جديدًا وسيبقى هذا الجديد قديمًا

والأدب بنوع أخصّ، لكون مركزه الذوق، يختلف عن العلوم الطبيعية ولا يتهيّأ للاختراعات الجديدة كما تتهيّأ هذه العلوم. ولقد شاهدنا أشدّ الناس استمساكًا بالطرق العلمية المادّية وأعضّهم بالنواجذ على المحدثات العصرية إذا جئت به إلى الأدب، وأسلوب القول حافظَ أشدّ المحافظة على الديباجة المدرسية وأودع الآراء العلمية الحديثة قوالب ليست في شيء من الاختراعات الجديدة. وما سمعنا بكاتب نزع عن الأسلوب المعروف في الكتابة إلى أسلوب جديد يتوخّى فيه لغة جديدة واصطلاحات غير معروفة، وساغ ذلك في أذواق الناس. وكثيرًا ما سمعنا عن طه حسين وبعض من يسمّون أنفسهم مجدِّدين أنهم يريدون أن يجدِّدوا في الأدب، وما رأيناهم أتوا بشيء جديد. فهم بين أمرين: إمَّا أن يقتدوا بالأوّلين في أسلوب الإنشاء ويخوضوا في حديث التجدُّد لكن بلهجة القدماء أنفسهم، فيكونون خالفوا ما يدعون إليه؛ وإمَّا أن يحاولوا منزعًا جديدًا في الكتابة، فتراهم يخرجون عن أساليب اللغة ولا يعود كلامهم مفهومًا ويشعر كلّ من قرأه أنهم يحاولون فلسفة باردة من أبعد الأشياء عن الذوق السليم. هذا من الوجهة العملية، فأمّا من الوجهة النظرية فليقُل لنا طه حسين: ما الأدب الذي صحَّ عنده بعد أن وضع الأدب القديم كلّه موضع الشكّ؟ فإنَّ الناس

لا بدَّ لهم من أدب ومن تاريخ أدب ومن تاريخ سياسة، ولا يمكنهم أن يتركوا ثمرات العقول والقرائح في آماد متطاولة وحقب لا يكاد يحفظ بدؤها لأجل أن يقول لهم طه حسين: «ليس ما يمنع أن يكون كذا»، أو «إنَّ الشكّ فيه لذّة»، أو «إنَّ القدماء أحبّوا الإسلام كثيرًا، فقصروا كلّ شيء عليه وكذبوا هذا الكذب كلّه لأجل تمجيد الإسلام»، أو ما هو بمعناه ممَّا يدلّ على سهولة الكذب إلى الحدّ الأقصى عند طه حسين.

ولقد جاوبه الأستاذ الغمراوي، قائلاً له: «ولو أنَّ الدكتور اتَّبع سُنَّة العلم في بحثه لَعَلِم أنَّ قديم اللغة العربية أكبر من أن يقع دفعة واحدة تحت شكّ باحث علمي، ولقَصُر شكّه على ذلك الجزء من القديم الذي يتَّصل بموضوع بحثه. وليته إذ ترك سبيلهم في هذا تبع سُنَّتهم في نقد القديم، فبيَّن حقًّا وجوه النقد فيه ومواطن الضعف منه حتَّى يكون هو على بصيرة من بحثه، وحتَّى لا يضيّع زمنه وزمن الناس في بحث أو أبحاث لعلَّ الحاجة العلمية إليها غير قائمة. ولكنَّه لم يفعل هذا أيضًا كأنَّما قد أحسّ بأنَّ الأخذ بسُنَّة العلم هذه يطيل عليه الطريق إلى ما يريد ويجعل كلّ موقف شكّ يقفهُ واقعة بينه وبين مخالفيه، فأراد أن يجمع الوقائع كلّها في واقعة واحدة حاسمة: يشكّ هو في القديم كلّه جملة، ويدافع المدافعون عن القديم جملة. ونسى أنه سواء انتصر عليهم في نفوس الشباب أو لم ينتصر، فلن تكون الواقعة واقعة علمية من جانبه، ولن يقرّ العلم انتصاره لو انتصر لأنَّ العلم يريد أن يكون التعارك والتدافع حول كلّ موقف وسيلة إلى تمحيصه وتبيين الحقّ فيه. ولو في غير هذه الأمّة ظهر هذا الكتاب، لكان في ما فيه من دعوة إلى الشكّ في الماضي كلّه ما يكفي وحده لإماتة الكتاب وليدًا».

ثمَّ أتى الغمراوي على ذكر مبرِّرات الشكّ في زعم طه حسين وردّ عليها واحدًا واحدًا بطريقة علمية، نترك [لمن يقرأ الكتاب] التأمّل في أحكامها وسدادها ولكنّي أقف عند قول طه حسين: «إنَّ الشكّ قد يؤدّي إلى ما يقرّب من الثورة الأدبية»، وجواب الغمراوي له بقوله: «إنَّ العلم ليس من همّه إحداث الثورات ولا يرمي في أبحاثه إلى استحداث الغرائب. وما نراه من غرائب العلم إنَّما جاء عفوًا لم يقصد العلم أن يدهش به الناس، وإنَّما طلبة العلم الحقّ يرحّب به أينما وجده: إن وجده بين

القديم استمسك به، وإن كشف به من جديد فرح به، دُهش له الناس أو لم يدهشوا. لذلك، يحافظ العلم على القديم من الحقّ محافظته على الجديد منه. وهذا الكلام يبدو بدهيًّا لا حاجة إلى توكيده لولا أنَّ الطائفة التي تتلقَّب بالمجدّدة في مصر والدكتور طه حسين من قادتها تكتب وتتكلَّم على ما يظهر، كأنَّ القدم علامة البطلان والجدّة علامة الثبوت». إلى أن يقول: «إنَّ العلم ليس هو بالذي إذا مُلَّ نبذَ ولم يحقَّق، وإذا استطرف قبل ولم يحقّق؛ بل مذهب العلم في الواقع هو المحافظة، أو قُلْ إنَّ العلم هو رأس المحافظين المتعلِّقين لا ينبذ قديمًا إلاَّ بحجّة، ولا يقبل جديدًا إلاَّ ببرهان. وليس معنى كون العلم لا ينبذ قديمًا إلاَّ بحجّة أنه يرى أنَّ كلّ قديم حقّ، لو كان يرى ذلك ما نبذه قطّ لا بحجّة ولا بغير حجّة، بل لرأي ـ جريًا على قاعدة استحالة التناقض بين الحقائق ـ أنَّ كلّ حجّة تؤدِّي إلى نبذه حجّة باطلة، لكنَّ العلم ينزل المعلومات منازلها في القديم كما ينزلها منازلها في الحديث». إنَّ هذا الفصل من كتاب الغمراوي هو فصل الخطاب في قضيّة القديم والحديث وفي موقف الناس بينهما، يكاد الناقد البصير إذا قرأه أن لا يجد في عبارته أدنى فرجة يقدر أن يزيد بها كلمة أو ينقِّص كلمة؛ فألفاظه مفصَّلة على قدر المعاني، ومعانيه مفصَّلة على قدر الحقائق الثابتة. ولقد أتمَّ الأستاذ الغمراوي مبحثه في العلم وشؤونه وطريقة التحقيق فيه ودرجات الثبوت والراجح والمرجوح والقطعي والظنّي، إلى غير ذلك ممَّا يجدر بالناشئة أن يحفظوه عن ظهر قلوبهم وأن يتدبَّروا معانيه ويتَّخذوه دستورًا للعمل ومنارًا للسرى في ظلام هذه الشكوك المعترضة. وأنا أزيد على ذلك أنَّ العلم ليس فيه قديم وجديد، وأنه كما قال المتكلِّمون عن العلم الإلهي [illegible]

منحصرًا في مصر أو في الشرق، بل الطلبة في الغرب أيضًا من دأبهم أن يملّوا كلّ قديم وينشدوا كلّ جديد ويعترّضوا على كلّ أمر أجمع عليهم من تقدّمهم، وترى الناس هناك معهم في عناء ما دامت دماؤهم تغلي في مراجل الشباب، فإذا قطعوا العقد الثالث من حياتهم رأيتهم رجعوا عمّا كانوا عليه وعدّوه من غرور الشباب، ونظروا في الأمور من حيث جوهرها لا من حيث تاريخ مولدها، وعلموا أنَّ ما كانوا عليه من الشطط إنّما هو عمل اقتضاه تركيبهم الفسيولوجي الذي هو في فورة دم الشباب غيره في ركون جأش الكهولة.

ثمّ إنَّ الأستاذ الغمراوي تكلَّم على مذهب ديكارت الذي هو سلاح طه حسين بزعمه، والمحور الذي أدار عليه مباحثه واستخلص منه أنَّ ديكارت لم يبدأ بالشكّ لأجل أن يستمرّ بالشكّ، بل ابتدأ بالشكّ لينتهي إلى اليقين. وإنَّه صار من قواعد فلسفة ديكارت أنَّ ما وجد في الذهن واضحًا جليًّا، فهو حقّ يجب أن يسلّم به تسليمًا.

وأنا أقول إنَّ ديكارت إنّما بدأ بالتشكيك ليزداد يقينًا، أشبه بالرجل الذي يريد أن يطمر طمرة بعيدة، فيرجع إلى الوراء استجماعًا لقوّته. وتجده يستجدّ في هذه الرجعة إلى الوراء من العزم ما لم يكن له لو قفز من مكانه. وما أحد من الفلاسفة قال إنَّ ديكارت ابتدأ بالشكّ حتَّى ينتهي بالنفي، بل الأمر بالعكس؛ فقاعدته كانت أشبه بالشهادة: أولها النفي، ونهايتها الإثبات الذي لا شكّ فيه من ناحية من نواحيه. فقد جعل ديكارت قاعدته أن يشكّ بادئ ذي بدء حتَّى إذا تأمّل كيف أمكنه أن يشكّ انتهى إلى نتيجة أنَّ المتشكّك موجود. ثمَّ انتهى من إثبات وجود الإنسان إلى وجود البارئ تعالى. هذا هو مذهب ديكارت. وإنّي أرى أجحد متفلسف لمذهب ديكارت هو طه حسين الذي ما زاد على أن ألقى شبهات وأورد خوانس، ثمَّ لم ينتهِ منها إلاَّ إلى حيرة عمياء ليست في شيء من مذهب ديكارت. وأقول أيضًا لو سلَّمنا جدلا بأنَّ مذهب طه حسين هو مطابق لمذهب ديكارت. فمن يقول إنَّ ديكارت كان معصومًا من الخطأ، وإنّه إنْ قال ديكارت فقد قضى الأمر وجفّ القلم؟ فلا ديكارت ولا فيلسوف آخر تلقّى الحكماء جميع كلامه بالتسليم.

وقد زعم ديكارت أنَّ حركات الحياة ناشئة عن أرواح حيوانية يقذف بها القلب إلى الدماغ، ويقذف بها الدماغ إلى الأعصاب. واليوم، نجد الناس يهزأون بهذه النظريّة. ومن أهمّ ما نبَّه إليه الأستاذ الغمراوي من أدوات التضليل التي استعملها الدكتور طه حسين هو قول الدكتور عن طريقة رينيه ديكارت إنَّها تُجرِّد الإنسان من كلّ ما كان يعلمه عن موضوع بحثه من قبل. قال: على أنَّ القاعدة الديكارتية ليست كذلك، بل هي أن لا نقول عن شيء إنَّه حقّ إلاَّ إذا قام البرهان على أنه كذلك. وشتّان بين هذا المعنى وبين المعنى الذي زعم الدكتور من وجوب التجرّد من كلّ ما قيل في الموضوع من قبل؛ إذ من الجائز أن يكون ما قيل قد قام البرهان على صحّته. وأنا أقول إنَّ قول ديكارت: "أشكّ في وجودي، إذًا أنا موجود" هي بنفسها تدلّ على عدم التجرّد من كلّ ما كان يعلمه من قبل. فقد كان مقرّرًا عنده من قبل أنَّ التشكيك هو تفكير، وأنَّ التفكير دليل على وجود المفكِّر. فانتهى من هنا إلى إثبات المخلوق، ثمَّ الخالق. وعليه، يكون ديكارت عمل بقاعدة هي من البديهيّات عنده من قبل ولا يكون تجرَّد التجرُّد الذي يصفه لنا الدكتور.

ومالي وللتعليق على كتاب الأستاذ الغمراوي واستقصاء ما فيه، وهو لم يترك في القوس منزع ظفر ولم يغادر صغيرة ولا كبيرة من الموضوع إلاَّ وفاها حقّها من البحث بطريقة علمية اعتادها من مباحثه في الكيمياء وعلم الطبيعة، وتمَّ فيها حظّه بملكة عربية متناهية في البلاغة، فجاء هذا الكتاب نسيج وحْدَه في الجمع بين العلم والأدب، وآية من الآيات الباهرة في إبراز التحقيقات العلمية بهذا القالب النفيس من لغة العرب. وإنَّ من أفضل ما في هذا البحث أنَّ صاحبه أستاذ متخصِّص في علوم الطبيعة، متمرِّس بالتجارب التي لا تكذِّب صاحبها، ممَّا يزيده صحّة حكم وسداد نظر، ويؤيِّده في التغلُّب على المكابرين وإلقامهم الحجر.

لوزان، ٢٥ ديسمبر ١٩٢٨ — شكيب أرسلان



٦

السيّد جمال الدين القاسمي★

لا يخفى على أهل الأدب، أنَّ الجمال والقَسام في العربي واحد، وأنَّ معنى القاسم هو الجميل. فلا يوجد إذن لتأدية هذا المعنى أحسن من قولنا: "الجمال القاسمي"، الذي جاء اسمًا على مسمّى، مع العلم بأنَّ الجمال الحقيقي، هو الجمال المعنوي،لا الجمال الصوري، الذي هو جمال زائل. فالجمال المعنوي هو الذي ورد به الحديث الشريف: "إنَّ الله جميلٌ ويحبّ الجمال".

وعلى هذا يمكنني أن أقول: إنَّه لم يُعطَ شطر الجمال المعنوي الذي يحبّه الله تعالى، ويشغف به عبادُ الله تعالى، بدرجة المرحوم الشيخ جمال الدين القاسمي الدمشقي، الذي كان في هذه الحِقبة الأخيرة جمال دمشق، وجمال القطر الشامي بأسره، في غزارة فضله، وسعة علمه، وشفوف حسّه، وزكاء نفسه، وكرم أخلاقه، وشرف منازعه، وجمْعِه بين الشمائل الباهية، والمعارف المتناهية، بحيث إنَّ كلَّ من كان يدخل دمشق، ويتعرّف إلى ذاك الحَبر الفاضل والجهبذ الكامل، كان يرى أنه لم يكن فيها إلاَّ تلك الذات البهيّة، المتحلّية بتلك الشمائل السرية، والعلوم العبقرية، لكان ذلك كافيًا في إظهار مزيتها على سائر البلاد، وإثبات أنَّ أحاديث مجدها موصلة الإسناد.

لقد تعرّفتُ إلى العلاّمة المشار إليه رحمه الله، منذ ثلاث وعشرين سنة أو أكثر، وذلك بواسطة صديقه الأستاذ العلاّمة نادرة عصره، الشيخ عبد الرزّاق البيطار، قدّس الله روحه اللطيفة. فقد كان هذان الجهبذان فرقدَين في سماء الشام، يتشابهان كثيرًا في سجاحة الخُلُق، ورجاحة العقل، ونبالة القصد وغزارة العلم، والجمع بين

★ تقديم الأمير شكيب أرسلان، صدَّر به كتاب "قواعد التحديث في فنون مصطلح الحديث" للسيِّد جمال الدين القاسمي. (تعود طباعة الكتاب إلى عام ١٩٢٥). (المحقِّق)

العقل والنقل، والرواية والفهم. ولم يكن في وقتها أعلى منهما فكرًا، وأبعد نظرًا، وأثقب ذهنًا، في فهم المتون والنصوص، والتمييز بين العموم والخصوص، وكان وجودهما ضربةً شديدةً على الحشوية، وتلك الطبقة الجامدة، التي هي وأمثالها صارت حجّةً على الإسلام في تدهوره وانحطاطه، وفقده معاليَه السالفة.

وقد كنتُ لا أغشى دمشق مرّة من المرار ـ والله يعلم كم كنتُ أزورها كلّ سنة ـ إلاَّ كان أول ما أبادر إليه زيارة الأستاذَين: الشيخ عبد الرزّاق البيطار، والشيخ جمال القاسمي، رحمهما الله، وجزاهما عن الإسلام خيرًا. وكانت تستمرّ مجالسي مع كلٍّ منهما أو معهما مجتمعين، الساعات الطوال، في الأيام والليال، ولا نشعر بمرورها، بسبب طرافة الحديث، ولطافة النكات، وجلالة المواضيع، ونصاعة البراهين، وغزارة الشواهد، والنظم بين المعقول والمنقول، والجمع بين الفروع والأصول. فكنتُ إذا سمعت محاضراتهما نسيت نفسي، ورأيتني في حياة غير الحياة التي أعهدها. وكم حفظت ممَّا سمعته منهما من شوارد، وفهمت من حقائق، وتذوّقت من رقائق، أنا فيها عيال عليهما ـ وإنِّي لأجرُّ ذيل التيه بهذا السند.

وقد كان للشيخ جمال رحمه الله عدا إحاطته العلمية، معارف لا يساويه فيها أحدٌ من المجتمع الإسلامي عمومًا، والعربي الشامي خصوصًا. فقد صحَّ فيه ذلك التعريف الذي عرّف بعضهم «العالِم» فقالوا: «هو قبل كلِّ شيءٍ العالِم بأحوال عصره ومصره».

وقد كنتُ إذا فارقت ذينك الأستاذَين، لا أفتأ أعْشو إلى منارهما، وأجاذبهما حبال المراسلة، استفادةً منهما على البعد، واستحضارًا في الخيال لروحيهما اللتين هما معدن الأنس. وعندي منهما كُتبٌ أعدّها من أنفَس الذخائر، وأثمن ما يورّثه الأول للآخر. وربَّما أنشر بعض كتابات الشيخ جمال في أول فرصة تتسنّى لي.

وكنتُ أعلم أنَّ للشيخ جمال تآليف ممتِعة، وربَّما كان يُطلعني على بعضها، وربَّما طالعني ببعض آرائه فيها، واستأنس برأيي القاصر، واستورى زندي الفاتر.

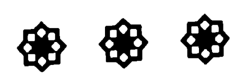
وهو مع ذلك صاحب الرأي الذي انتهَتْ إليه الأصالة، والقول الذي اندمجت فيه الدقة مع الجلالة. ولكنّي لم أكن اطَّلعت على كتابه الذي هو تحت الطبع الآن، المسمّى «قواعد التحديث، من فنون مصطلح الحديث»، فقد بعث به إليَّ ولده الأديب السيِّد ظافر القاسمي، أظفره الله بما أراده، وجعله فرعًا صالحًا لذلك الأصل المنقطع النظير. فرأيت من هذا الكتاب في حُسْن ترتيبه وتبويبه، وتقريب الطرق على مُريد الحديث، والإحاطة بكلِّ ما يَلزم المسلم معرفته من قواعد هذا العلم الشريف ما يقضي بالعجب لمن لم يكن يعرف علوّ درجة المؤلَّف، ولكنَّه ممَّا لا يعْجَب منه مثلي ممَّن حضروا مجالسه الزاهرة، وسمعوا تقريراته الساحرة. وإنِّي لأوصي جميع الناشئة الإسلامية، التي تريد أن تفهم الشرع فهمًا ترتاح إليه ضمائرها، وتنعقد عليه خناصرها، أن لا تُقدِّم شيئًا على قراءة تصانيف المرحوم الشيخ جمال القاسمي، الذي قَسَمَ الله له من اكتناه أسرار الشرع، ما لم يقسمه إلاَّ لكبار الأئمّة، وأحبار الأمّة، والله تعالى ينفع المسلمين بآثاره، ويهديهم في ظلمات هذه الحياة بزاهر أنواره، آمين.

جنيف، ٥ رجب الفرد ١٣٥٣ — شكيب أرسلان



فهرست المحتويات

* مقدّمة الناشر	٥
* المقدّمة: الشعر الجاهلي، أمنحول أم صحيح النسبة؟	٧
- توطئة	٧
- تقليد الأوربيين في ما ليس من علومهم	١٠
- غرائب بعض الأوربيين	١٣
- الشعر الجاهلي والإسلام	٢٠
- لا مصلحة للإسلام في تعفية آثار ما سبقه	٢٠
- القرآن ملآن بذكر الديانات السابقة وأخبارها	٢١
- ما بأيدينا من الشعر الجاهلي خليق بعصره	٢٢
- الحكم العربي لا يعرف طريقة كمّ الأفواه وتقييد الأقلام	٢٦
- هل اشترك المؤرِّخون من سائر الملل في مؤامرة السكوت؟	٢٩
- من كانت تلك العصابة التي تولّت كبر هذا التزوير العبقري؟	٣٠
- متى وقع هذا النظم على ألسن الجاهليين	٣٣
- الحقائق لا تكون تحت رحمة الشكوك	٣٤
- تدريس الآراء الفطيرة باسم التجديد	٣٦
- بحران الشرق الاجتماعي	٣٨
- مادّة «الأدب» في الكلام العربي	٤٤
- نسبة الانتحال إلى المحدثين والمفسِّرين والمتكلِّمين والنحّاة	٤٥
- محاولة إلغاء جهود ثلاثة عشر قرنًا ببضعة أسطر	٥١
* السيّد جمال الدين القاسمي	٥٩
* فهرست المحتويات	٦٣





١٨٦٩ ـ ١٩٤٦

ليس الشرقي مرادفًا لقديم ولا الغربي مرادفًا لجديد، بل عند الغربيين عقائد وعادات وأطوار وأوضاع قديمة قد تكون أقدم من أندادها عند الشرقيين. فمن أكبر الأغلاط تلقّي كلّ قول أوربي جديدًا وتنزيله منزلة اختراع صناعي أو كشف علمي.

ليس كلّ شيء قديم منبوذًا وليس كلّ شيء جديد ـ برغم أنّ كلّ جديد له طلاوة ـ مرغوبًا فيه، بل ينبغي أن يُنظر في العلم إلى الأصحّ، وفي العمل إلى الأصلح، بدون ملاحظة أنّ هذا جديد وذاك قديم.

إن كان كلّ قديم يجب نبذه والعدول عنه إلى جديد، فلا يكاد يوجد شيء أقدم من الخبز الذي لا يزال الخلق مُجمعين على اتّخاذه قوتًا في كلّ مكان وُجِدَ فيه القمح. ولو مضت مائة ألف سنة، لما كان العسل إلاّ عسلاً بطعمه وخواصه كما كان منذ مائة ألف سنة قبل اليوم. إنّ هذه أمور مرتبطة بالذوق الإنساني ومقتضى الفطرة البشرية، فما دام الإنسان هو الإنسان فهناك بالنسبة إليه أشياء ليس فيها قديم وحديث.

شكيب أرسلان